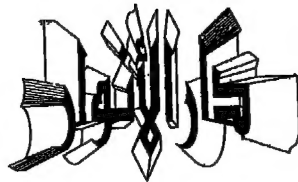
الطب الروحاني

«تهذيب الأخلاق»

شرح وتحقيق

الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان

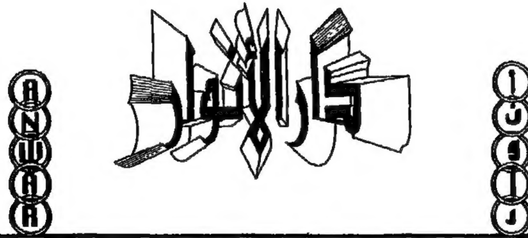


الطب الروحاني

« تهذيب الأخلاق »

الطبعة الأولى

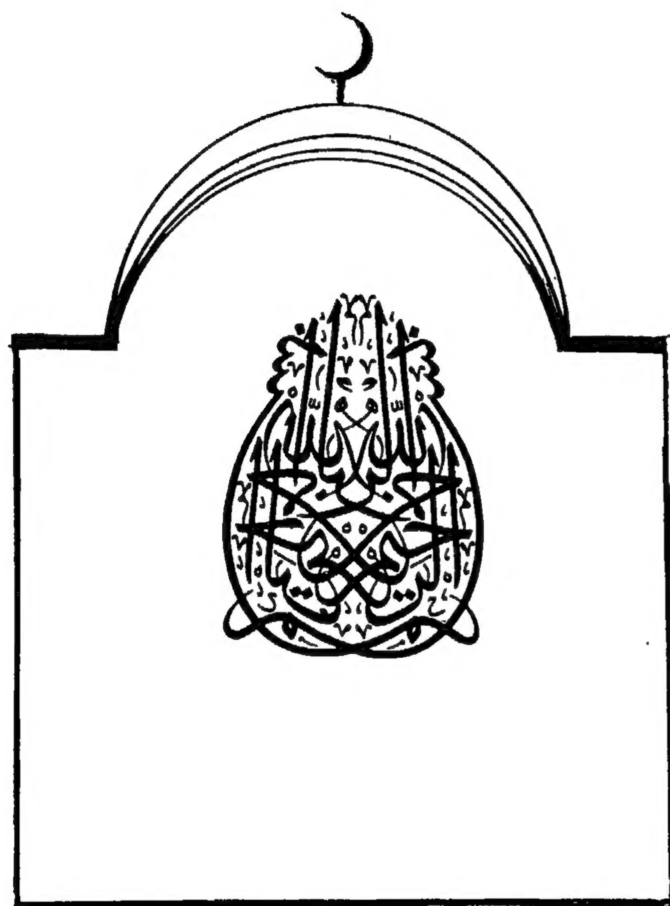
١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣



دمشق ـ حلبوني ـ شارع مسلم البارودي DAMASCUS HALBOUNI M.BAROUDI ST.

ص.ب P.O.Box 232 Telex 412027 هاتف Tel. 229425 - 234393

مكتب الأنوار في بيروت - تجاه جامعة بيروت العربية - دحلة الإطمانية - سابع بناء على اليسار - هاتف ٣١٨٣٠١



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تبارك وتعالى

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ

مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ
مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمًّا وَعُمۡيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا
لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا
صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي
لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله المنفرد بالجلال في كبريائه وتعاليه ، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه ، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه ، المتكرم بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده في جميع موارده ومجاريه ، فهو الذي يرشده ويهديه ، وهو الذي يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذي يوفقه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذي يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحميه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ليكسر شهوة النفس التي تعاديه ، فيدفع شرها ويعبد ربه ويتقيه .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلم.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه صلاة دائمة إلى يوم الدين .

وبعـــــد:

فإن موضوع هذا الكتاب تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب والروح ، فإن الأخلاق الحسنة والروح القويمة أبواب مفتوحة إلى جنات النعيم ورضاء الله عز وجل ، ولذلك نرى اهتمام الإمام ابن الجوزي في هذا الكتاب بطب الروح علاجاً للقلوب والنفوس والأرواح ، وهذا النوع من الطب واجبٌ تعلّمه على كل ذي عقلٍ وتدبير ، إذ لا تخلو روح من الأرواح عن أمراض لو أُهملت لتراكمت وترادفت وتظاهرت وربما أودت بصاحبها إلى الجحيم ، لذلك

كان لابد من تعلم هذا العلم والتشمير والجد في علاجها واصلاحها ، وهو المراد بقول الله تعالى: ﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾.

وقد جاء هذا الكتاب على صغر حجمه حاوياً على فوائد جمة ، ونصائح كثيرة بأسلوب عذب رقيق يقنع الجانح ، ويأخذ بيد المريد إلى أرض مدارج التائبين العابدين الناجحين في الدنيا والآخرة..

نسأل الله تعالى أن ينفع به ويجعله ذخراً لنا يوم لاينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان

التعريف بالمؤلف

اسمه ونسبه وكنيته

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حُمَّادىٰ بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي ، أبو الفرج ، جمال الدين المعروف بابن الجوزي ، والجوزي : نسبة الى فرضة الجوز ، أو الى محلة الجَوْز في البصرة[1]، محدِّث ، حافظ ، مفسِّر، فقيه ، واعظ ، أديب ، مؤرخ ، عالم مشارك في أنواع اخرى من العلوم .

يرتقي نسبه إلى أول الخلفاء الراشدين، أي أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

مولده وحياته ووفاته:

مولده

يقول ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» : انه ولد في سنة عشر وخمس مائة أو قبلها ، ويؤكد ذلك ابن خلكان في «وفيات الأعيان»، أما الإمام الذهبي فقد نقل في كتابه «سير أعلام النبلاء» : أن أبا عبد الله بن الدبيثي سأله غير مرة فكان

(١) حيث تحط السفن في البصرة.

يقول : تقريباً في سنة عشر، كما سأل أخاه عمر فقال : في سنة ثمان وخمسمائة تقريباً ، أما ابن رجب الحنبلي فينقل انه قد وُجِدَ بخطه : «لا أحقق مولدي ، غير أنه مات والدي في سنة اربع عشرة ، وقالت الوالدة : كان لك من العمر نحو ثلاث سنين ويُستخلص أنه ولد في الفترة مابين ٥١٠ ـ ٥١١ هـ.

وقد ولد في مدينة بغداد بـ«درب جيب» حيث كفلته أمه وعمته بعد وفاة أبيه سنة ٥١٤ هـ ثم انفردت بكفالته عمته التي أسبغت عطفها عليه.

يقول عن نفسه : وقد فإن أبي مات وأنا لا أعقل ، والأم لم تلتفت إليَّ[1] ثم يقول : فركَّزَ تعالى في طبعي حب العلم . ومازال يوقعني على المهم فالمهم ، ويحملني إلى من يحملني على الأصول حتى قوَّم أمري.

وحين بلغ سن الفهم حملته عمته الصالحة الى مسجد أبي الفضل بن ناصر ، وهو خاله ، فاعتنى به وأسمعه الحديث ، وحفظ القرآن الكريم ، وقرأه على قرّائه برواياته . وما زال يطلب العلم ويرتقي في درجاته ، حتى صار عالم عصره ، وعلّامة زمانه.

حياته

وقد لاقى في طلب العلم صعوبات وشدائد ، لكنه صبر عليها وتجاوزها دون أن تؤثر على مسيرته العلمية ، وقد قال في ذلك[2] «ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو» وقال : «كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج الى طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسىٰ فلا أقدر على أكلها إلّا عند الماء . فكلما أكلت لقمة شربت

---

(٢) «صيد الخاطر» ٢١٣ .

(١) «صيد الخاطر» ٢٣٥ ، دار الفكر ١٣٩٩ هـ.

عليها ، وعيـن همتي لا ترى إلّا لذة تحصيل العلم . فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث سير الرسول صلى الله عليه وأحواله وآدابه ، وأحوال الصحابة وتابعيهم ، فصرت في معرفة طريقه كابن أجود وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدرك بالعلم ، حتى انني أذكر في زمان الصبوة ، ووقت الغلمة والعزبة ، قدرتي على أشياء ، كانت النفس تتوق اليها توقان العطشان الى الماء الزلال ، ولم يمنعني عنها إلّا ما أثمر عندي من العلم من خوف الله عز وجل[1]» .

ويقول في حديث شيق لابنه في كتابه «لفتة الكبد»[2] : «واعلم يا بني أن أبي كان موسراً وخلف ألوفاً من المال ، فلما بلغتُ دفعوا لي عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لي : هذه التركة كلها ، فأخذت الدنانير واشتريت كتباً من كتب العلم ، وبعتُ الدارين ، وأنفقت ثمنها في طلب العلم ، ولم يبق لي شيء من المال ، وما ذلّ أبوك في طلب العلم قط» . ويقول : «ما ابتلي الانسان قط بأعظم من علو همته ، فإن من علت همته يختار المعالي ، وقد لا يساعده الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب ، واني أُعطيتُ من علو الهمة طرفاً فأنا به في عذاب[3]» .

---

(١) ٤٨ ، طبعة المكتب الإسلامي .

(٢) مرآة الزمان : ٨/٤٨١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/٣٧٣ .

أقوال العلماء عنه :

قال عنه أبو المظفر : جدي قرأ القرآن ، وتفقَّه على أبي بكر الدينوري الحنبلي ، وابن الفراء، ويقول الذهبي : وعُني بأمره شيخه ابن الزغواني ، وعلمه الوعظ ، واشتغل بفنون العلوم ، وأخذ اللغة عن ابي الجواليقي ، وربما حضر مجلسه مائة ألفٍ ، وأوقع الله له في القلوب القبول والهيبة . . . وكان زاهدا في الدنيا ، مُتقللاً منها . وكان يجلس بجامع القصر والرصافة . . وما مازح أحداً قط ، ولا لعب مع صبي ، ولا أكل من جهة لا يتعينٌ حلُها .

وقال عنه ابن الدُّبيثي في تاريخه : شيخنا جمال الدين صاحب التصانيف في فنون العلم من التفسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك . . .

وفاته:

توفي الإمام ابن الجوزي ليلة الجمعة بين العشاءين في الثالث عشر من رمضان سنة ٥٩٧هـ في داره ، وكان غسله وقت السحر ، وغُلِّقت الأسواق ، وجاء الخلقُ ، وصلى عليه ابنه أبو القاسم عليٌّ ، لأن الأعيان لم يتمكّنوا من الوصول اليه ، ثم ذهبوا به الى جامع المنصور ، فصَلُّوا عليه ، وضاق بالناس ، وكان يوماً مشهوداً ، فلم يصل الى حفرته ـ بمقبرة أحمد بن حنبل الى وقت صلاة الجمعة ، وأُنزِلَ في الحفرة ، والمؤذِّن يقول : الله أكبر ، وحزن عليه الخلق . رحمه الله تعالىٰ .

مؤلفاته

حظيت مؤلفات ابن الجوزي شهرة واسعة ، واقبالاً شديداً ، وعناية فائقة من العلماء والباحثين والطلاب ـ حتى انه لا تكاد تخلو مكتبة عامة أو خاصة من أكثر من كتاب له . ومع ذلك لا نجد احصاءاً دقيقاً لمجموع مؤلفاته وعناوينها . فقد نقل سبطه أبو المظفر انه سمع الإمام ابن الجوزي يقول : «باصبعي هاتين كتبت ألفي مجلدة ، وتاب على يدي مئة الف ، واسلم على يدي عشرون ألفاً ،»[1] ونقل أيضاً ان مجموع تصانيفه مئتان وخمسون كتاباً[2] وليس من تعارض بين القولين فبعض تصانيفه تبلغ أكثر من عشر مجلدات .

وقال الذهبي[3] : «قلتُ : وكذا وجد بخطه قبل موته أن تآليفه بلغت مائتين وخمسين تأليفاً» .

وذكروا عن ابن تيمية انه قال : «وله مصنفات في أمور كثيرة ، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف ، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره[4]»[5].

وقد قام الاستاذ عبد الحميد العلوجي في طبع كتاب أحصى فيه ما استطاع من كتب ابن الجوزي سمّاه : «مؤلفات ابن الجوزي» تعتبر أجمع ما صنف من مؤلفاته . وقد بلغ عنه ما بين مطبوع ومحفوظ أكثر من أربعمائة مؤلف ، قسمها الى ثلاث أنواع : مخطوط ، مطبوع ، مفقود .

---

(١) + (٢) + (٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٧٠ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٤٥ .

(٥) «صيد الخاطر» ١٤٠ .

فمن المخطوط:

بستان الصادقين في مكتبة (كوبرلي زاده ١/٧٠١ ، تفسير الفاتحة في (داماد باستانبول ٦٣)، حادي قلوب أهل الدار إلى دار القرآن (باستانبول)، الحث على طلب العلم (كوفي مكتبة كوبرة في ١١٥٢)، رسالة في برِّ الوالدين (الخديويَّة ١٥٥٣/٧ ، هادي النفوس إلى الملك القدوس (برلين ٨٧٧٠)، وغير ذلك.

ومن المطبوع:

زاد المسير - ذم الهوىٰ - أخبار النساء - دفع سيئة - روح الأرواح - صيد الخاطر - الطب الروحاني - كتاب الحمقىٰ والمغفلين - تلبيس ابليس - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . وغير ذلك .

ومن المفقود:

أحصى صاحب «مؤلفات ابن الجوزي ٢٣٣ كتاباً» وجد بعضها وتم نشره بعد تحقيقه .

ومن ذلك كتابه : «تذكرة الأرِيب في تفسير الغريب» وقد وجدت منه نسخة مخطوطة في مكتبة الأحمدية بحلب ، وأقوم بتحقيقه ومقابلته على كتابه : «زاد المسير» .

شيوخه

١ ـ الإمام علي بن عبد الله بن نصر السري ، البغدادي ، المعروف بأبي الحسن بن الزاغوني ، الفقيه ، المحدث ، الواعظ ، الثقة ، توفي سنة ٥٢٨هـ .

٢ ـ الإمام عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد بن الحسن ، المعروف بابن الانماطي ، الحافظ ، الثقة ، قال عنه ابن الجوزي : «ولقيت عبد الوهاب الانماطي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث . وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه ، فكنت وأنا صغير السن حينذاك يعمل بكاؤه في قلبي ، ويبني قواعد ، وكان على سمة المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل» توفي سنة ٥٣٨هـ .

٣ ـ محمد بن ناصر بن محمد علي بن عمر أبو الفضل السلامي ، توفي سنة ٥٥٠هـ .

٤ ـ موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي : شيخ أهل اللغة في عصره توفي سنة ٥٤٠هـ . ويقول عنه ابن الجوزي[1] : «كان كثير الصمت ، شديد التحري فيما يقول ، متقناً ، محققاً ، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه ، فيتوقف فيها حتى يتيقن ، وكان كثير الصوم والصمت ، فانتفعت برؤية هذين الرجلين (الآخر الانماطي) اكثر من انتفاعي بغيرهما . ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بـالقول.

تلامذته

أشار الإمام الذهبي الى تلامذة ابن الجوزي في كتابه «سير أعلام النبلاء» ٣٦٧/٢١ بقوله : «حدث عنه ولدُهُ الصاحب العلامة محيي الدين يوسف أستاذ دار المستعصم بالله ، وولده الكبير علي الناسخ ، وسبطه الواعظ شمس الدين يوسف بن قزغلي الحنفي صاحب «مرآة الزمان» ، والحافظ عبد الغني ، والشيخ موفق الدين بن قدامة وابن الدبيثي ، وابن النجار ، وابن خليل ، والضياء ، والبلداني ، والنجيب الحراني ، وابن عبد الدائم ، وخلق سواهم .

وبالاجازة الشيخ شمس الدين عبد الرحمن ، وابن البخاري ، وأحمد بن ابي الخير ، والخضر بن حَمُّويْهْ ، والقطب بن عصرون» .

مراجع ترجمة ابن الجوزي

الذهبي : تذكرة الحفاظ : ٤/١٣١ ـ ١٣٦ . سير اعلام النبلاء : ٢١/٣٦٥ ـ ٣٨٥ .
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٦/٧٤ ـ ١٧٦ .
ابن الساعي : الجامع المختصر ٩/٦٥ ـ ٦٨ .
ابو شامة : الذيل على الروضتين ٢١ ـ ٢٨ .
السيوطي : طبقات المفسرين ١٧ .
ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٨ ـ ٣٠ .
اليافعي : مرآة الجنان ٣/٤٨٩ ـ ٤٩٢ .
ابن العماد : شذرات الذهب ٤/٣٢٩ ـ ٢١ .
ابن الأثير : الكامل ١١/٦٧ .
طاش كبري : مفتاح السعادة ١/٢٠٧ ـ ٢٠٨ .
الخوانساري : روضات الجنات ٤٢٦ ـ ٤٢٩ .
حاجي خليفة : كشف الظنون (كثيرة جداً تنظر في موضعها) .
البغدادي : هدية العارفين ١/٥٢٠ ـ ٥٢٣ .
الكتاني : فهرس الفهارس ١/٢٢٦ ـ ٢٢٨ .
بروكلمان : ١/٤٩٩ ـ ٥٠٨ . الذيل ٢/٩١٤ ـ ٩٢٠ .
الزركلي : الاعلام . /٢٣١
كحالة : معجم المؤلفين : ٥/١٥٧ ـ ١٥٨ .

مخطوطات الكتاب ومطبوعاته

اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على النسخة المعتمد المخطوطة المحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، الموجودة ضمن مجموع يحوي بعض رسائل وأجوبة مسائل لابن تيمية الحرَّاني تحت رقم ٣١٢٨ آ من الصفحات ق ١ إلى ق ٢٦ ، وقد ورد هذا المخطوط في فهارس المكتبة الظاهرية ـ فهرس الطب والصيدلة.

وليس في مكتبات القطر العربي السوري والقطر اللبناني الشقيق أي مخطوطات سواها معروفة حتى الآن ، ولكن الأستاذ عبد الحميد العلوجي أشار في كتابه «مؤلفات ابن الجوزي» صفحة ١١٩ إلى وجود مخطوطات أخرى في العالم ، عُرِفَ منها حتى الآن مخطوط: في غوطا برقم ١٢٣٨ ، ومخطوط في مكتبة الأوقاف في بغداد ضمن مجموع برقم ٢٩٠٠ ، بالإضافة إلى هذا المخطوط الذي نَسَبَهُ إلى مكتبة دمشق العمومية ٩٤ .

وكما توضح لي أثناء مقابلة هذا المخطوط المرفق صور عنه على النسخ المطبوعة ، انه طبق الأصل عن طبعة دمشق ١٣٤٨ هـ، فهي والحالة هذه لاشك مطبوعة عنه ، كما هو مسجل على غلافها.

مواصفات المخطوط

خطه واضح ، نسخي ، رديء ، سهل القراءة ، بلون أسود كما أن نقاطه واضحة . وأحرفه أحياناً تكون كبيرة ، وأحياناً صغيرة .

وليس للمخطوط أي تعليقات على الهامش ، كما لم يذكر اسم الناسخ عليه ، أو أي سماعات ، أو أي تاريخ .

يبدأ بصفحة هي عنوان المخطوط واسم مؤلفه . وينتهي بنهايته المبينة في صورة المخطوط .

والمخطوط في حالة جيدة جداً ، فليس فيه أي بلى أو تآكل أو غير ذلك ، ومغلف ضمن جلد قديم . وأغلب الظن أنه كُتب في القرن العاشر الهجري ، ضمن المجموع رسائل يعود تاريخها غلى سنة ٨٣٨ هـ.

عدد أوراقه : ست وعشرون ورقة.

طول الورقة : ٢٣ سم وعرضها ١٥ سم .

في كل صفحة : سبعة عشر سطراً

لون الورق : أسمر، وسط السماكة.

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم

الحمد لله الذي يبدي الداء ويدبر الدواء ولم يهب لمن اشفى على
شفا هلكة الشفا احمده على كل ما صدر عن قضائه وجاد اعلق
بفضله ومنه الرجا واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له نوّر
الفضا فضا واشهد ان محمدا عبده ورسوله اشرف من وطئ الارض
والسما وعلى اصحابه وازواجه صلاة تعم الاتباع والاولياء وسلم تسليما كثيرا
لما جمعت كتابا في طب الابدان وضمنته لقط المنافع اثرت ان اشفعه
بكتاب في طب النفوس اسميه الطب الروحاني فان طب الابدان اصلاح
الصور وطب النفوس اصلاح المعاني وهي اشرف والى الله سبحانه الرغبة
في النفع العاجل والاجر الاجل انه جدير بتبليغ الامال من منه
[illegible] الابواب اعلم ان جميع ما ركب في الادمي انما وضع لمصلحته
اما لاجتلاب نفع كشهوة المطعم او لدفع ضر كالغضب فاذا
زادت شهوة المطعم صارت شرها فاذت واذا زاد الغضب
احوج الى الفساد وهذا الكتاب موضوع لاستعمال ما هو الصواب

الشباب ونزا لضواحل السباق وبادروا ان تنتشر دمابهم عوارك
بهوا لا يجهل في عزاره ومنه ويقهر هواه لصلاح امره ونقطع من العلم بهمه
تعلمه مشغول عن اللهو نتصبح قصده وحواره معتبلة بالجد على طاعة ربه
ولذا امتنع بما رزقه الله عن منن خلقه وتعفف عن اموالهم حفظا لعرضه
نشادهم بغناء عنهم وازال فسادهم بوعظه فارعا ملتهم وبالانصات
لمن احذ عليهم بفضله وان استشاروه احتهد في نصحهم على انه مشغول
عن الطريق بنفسه متاهب للتنقل همه جمع رحلة يودي الى كل لحظة
عرضها من الحراسة نقوى لوبة ويستظهر بكثرة الزاد لعلمه بطول
شوطه ثم تحتهل في تهذيب العلم حياته ليحيى به اثره بعد موته
وقد زهد في الدنيا ولا يتناول الا قوته وقته وان فشى لنفسه
مباح لمراده تقويه حمله على حمله ثم لم يزل به عرفان حالته حتى دعاه
الى جنة فانتصب الصب وانخرط في شبكة فهو بين الحلو بجسمه
وعند الخالق بقلبه اولئك ريحان الله في ارضه تقوى انفاس المريدين
باستنشاق ريح احدهم وبلفظه وتفوح لنشر حمده من تعدد فن
راحلتهم في الحديث قبل البيت ببوتهم هيبة تخبر عن كل بقدره
واذا ذكرت اعمالهم تقوى بها المريد في طريق صبره والمتفوق في
فلك العبادة نجوم وهم لشمسه او كبدره رزقنا الله وفاقهم

ووهب لنا الحاتم والسنا اخلاقهم بسعه وفضله انه سميع

وب من عبده ٠ وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

اخر الكتاب والحمد لله وحده

وحسبنا الله ونعم الوكيل

بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير الا الله
ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله
ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله
ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله
[illegible]

ثم لا يدعون الله عز وجل ولا يسمى بهم رجل اعتق
سفينتها ماله ووجد الله تعالى والا فوتوا السعد الموالم
ونظر حال لدم من علم السعيد ورجال عنده اسراه
شيء الحلو علم بطلقها ٥ وحده اي موسى مرتين

طبعات الكتاب

كثيرة جداً طبعات هذا الكتاب وأغلبها في لبنان وفي مصر ، ولكنها في مجموعها عالة على النسخة المطبوعة في دمشق سنة ١٣٤٨ هـ في مطبعة الترقي بعناية مكتبة القدسي والبدير ، أُخذت عنها بدقة وبغير دقة ، وهذه المطبوعة أخذت عن النسخة المخطوطة التي اعتمدناها.

خطـة التحقيق

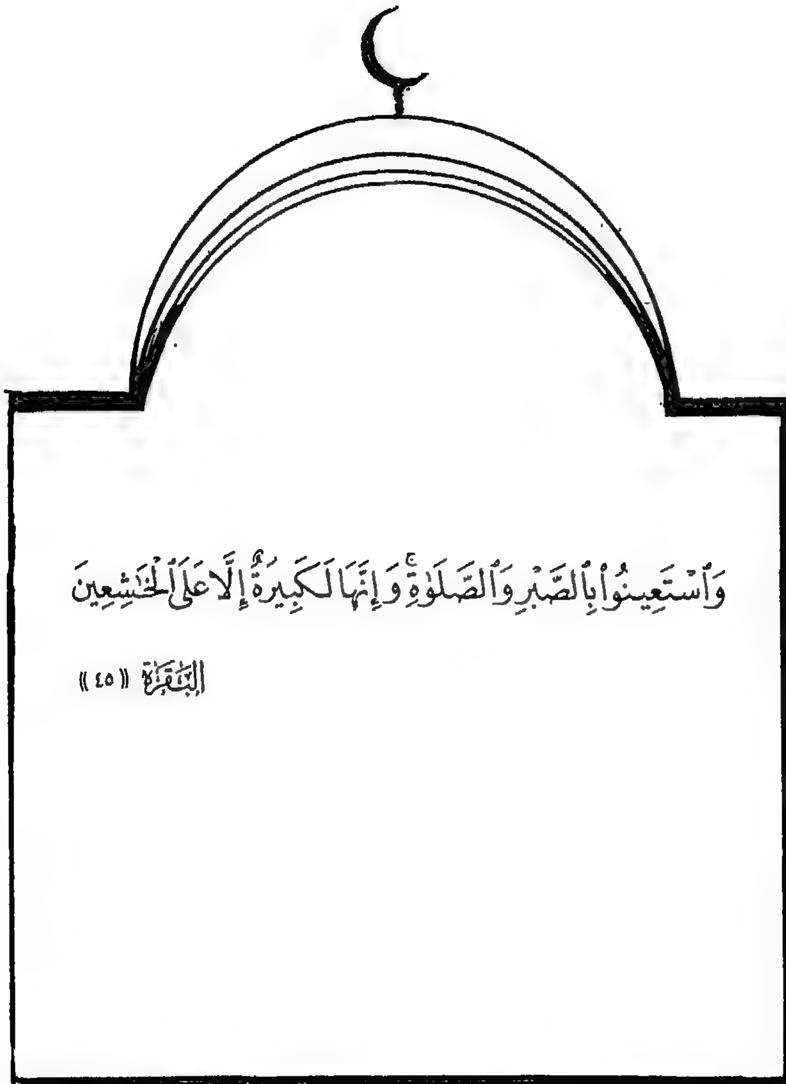
نظراً لأن الكتاب معروف وطبع كثيراً ، فلم أوليه الكثير من العناية بل اكتفيت بضرورات التحقيق ، فاقتصر عملي على مايأتي:

١ ـ مقابلة المخطوط على النسخ المطبوعة ، واعتماد المخطوط لصحته.

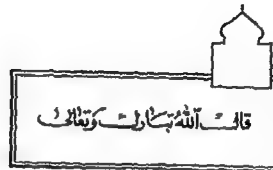
٢ ـ ضبط الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وأسماء الأعلام وتخريجها عن كتب الأصول عدا أسماء الأعلام المعروفين جداً أو المهملين جداً.

٣ ـ ألحقته بفهرس للموضوعات.

٤ ـ قدمت له بمقدمة بسيطة عرفت فيها بموضوع الكتاب وبمؤلفه راجياً من الله عز وجل أن ينفع به ، ويؤتيني أجره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم.


وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ
البقرة «٤٥»

بسم الله الرحمن الرحيم



يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ
بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ
وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي قدر الداء ، ودبر الدواء ، وكم وهب لمن أشفى[1] على شفا[2] هلكة الشفاء ، أحمده على كل ما صدر عن قضائه ، وجاء وأعلق بفضله ومنه الرجاء ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له نوَّر الفضاء فضَاءَ ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من وطىء الأرض والسماء ، وعلى أصحابه وأزواجه صلاة تعم الأتباع والأولياء ، وسلم تسليماً كثيراً . لما جمعت كتاباً في طب الابدان وسميته «لقط المنافع» آثرت أن أشفعه بكتاب في طب النفوس أسميه «الطب الروحاني» فإن طب الأبدان اصلاح الصور وطب النفوس اصلاح المعاني وهي أشرف ، والى الله سبحانه الرغبة في النفع العاجل ، والأجر الآجل ، إنَّه جدير بتبليغ الآمال من منه .

مقدمة قبل الكتاب

اعلم أن جميع ما وُضع في الآدمي إنما وُضع لمصلحته إمَّا لاجتلاب نفع كشهوة المطعم أو لدفع جذٍّ كالغضب ، فإذا زادت شهوة المطعم صارت شرَهاً ، وإذا زاد الغضب أخرج الى الفساد . وهذا الكتاب موضوع الاستعمال قانون الصواب من خلال الباطن وكفُّ الهوىٰ عن المؤذي منها ، وعلاج ما خرج لموافقة الشهوة عن القانون الصحيح . وقد قسمه ثلاثين باباً : (الأول) : في فضل العقل . (الثاني) : في ذم الهوى . (الثالث) : في الفرق بين ما يرىٰ العقل وما يرىٰ الهوىٰ . (الرابع) : في دفع العشق عن النفس . (الخامس) : في دفع الشرة . (السادس) : في رفض رياسة الدنيا . (السابع) : في دفع البخل . (الثامن) : في النهي عن التبذير . (التاسع) : في بيان مقدار الاكتساب والانفاق . (العاشر) : في ذم الكذب . (الحادي عشر) : في دفع الحسد . (الثاني عشر) : في دفع الحقد . (الثالث عشر) : في دفع الغضب . (الرابع عشر) : في دفع الكبر . (الخامس عشر) : في علاج العجب . (السادس عشر) : في علاج الرياء . (السابع عشر) : في دفع فضول الفكر . (الثامن عشر) : في دفع الحزن . (التاسع عشر) : في دفع الهم والغم . (العشرون) : في دفع الخوف والحذر من الموت . (الحادي والعشرين) : في دفع فضول الفرح . (الثاني والعشرون) : في دفع الكسل . (الثالث والعشرون) : في تعريف الرجل عيوب نفسه . (الرابع والعشرون) : في تنبيه الهمة الدنية . (الخامس والعشرون) : في ذكر رياضة النفس . (السادس والعشرون) : في رياضة الأولاد . (السابع والعشرون) : في رياضة الزوجة ومداراتها . (الثامن والعشرون) : في رياضة الأهل والمماليك .

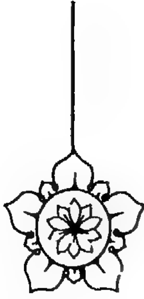
١/و

١/ظ

(التاسع والعشرون) : في معاشرة الناس ومداراتهم .

(الثلاثون) : في ذكر السيرة الكاملة .

الباب الأول



في فضل العقل

قد اختلف الناس في ماهية[1] العقل ، ومسكنه ، وأطالوا ، وقد رويت في فضله أحاديث كثيرة . وقد ذكرنا جملة من ذلك في كتابنا المسمى «بذم الهوى»[2] ، فلا نُعيدها ، بل نذكر ههنا جملة ، فنقول :

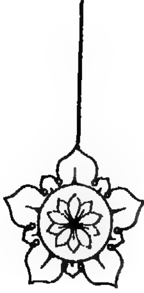
إنما يُعرف فضل الشيء بثمرته ، ومن ثمرات العقل معرفة الخالق سبحانه ، فإنه استدلَّ عليه حتى عَرَفه ، وعلى صدق الأنبياء حتى علمه ، وحثَّ على طاعة الله ، وطاعة رسله ، ودبَّر في نيل كل صعب حتى ذلَّل البهائم ، وعلَّمه صناعة السفن التي «٣/و» بها يتوصل الى ما حال بيننا وبينه البحر ، واحتال على طير الماء حتى صيدت ، وعينُهُ أبداً تراقب العواقب ، وتعمل بمقتضى السلامة فيها والعوز ، وبترك العاجل للآجل ، وبه فضَّله الأدمي على جميع الحيوان الذي فقده ، وبه تأهَّل الآدمي لخطاب الله سبحانه وتكليفه ، وبه يبلغ الانسان غاية ما في جوهر مثله أن يبلغه من خير الدنيا والآخرة من العلم والعمل . وكفى بهذه الأشياء فضيلة لا ببعضها . فليُكتفَ بهذه الجملة عن الإطالة .

---

(١) نقل المؤلف في كتابه «ذم الهوى» ص٥ ، ٦ كثير من التعريفات عن كبار العلماء كالمحاسبي والتميمي وأحمد بن حنبل ، ثم قال : والتحقيق في هذا : ان يقال : العقل عزيزة ، كأنها نورٌ يقذف في القلب فيستعد لادراك الأشياء ، فيعلم جواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ، ويتلمح عواقب الأمور ، وذلك النور يقل ويكثر . . . . ثم يقول : وأكثر أصحابنا يقولون : محله القلب ، وهو يروي عن الشافعي ، ودليلهم قوله تعالىٰ : (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) [الحج ٤٦] .

(٢) طبع عن عدة مخطوطات نفيسة بتحقيق مصطفى عبد الواحد لأول مرة سنة ١٣٨١هـ-١٩٦٢ في مصر- دار الكتب الحديثة ، في ٧٢٨ ص مع الفهارس .

الباب الثاني



في ذم الهوى

الهوى : ميل الطبع الى ما يلائمه[1] ، فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحاً ، وإنما يذم الإفراط فيه . فمن أطلقَ ذم الهوى ، فلأن الغالب فيه ما لا يحل ، أو يتأول المباح بإفراطه .

واعلم أن النفس منها : جزء عقلي ، فضيلته الحكمة ، ورذيلته الجهل ، وجزء غَضَبي : فضيلته الحِدَّةُ ، ورَذيلته الجبن . وجزء شهواني : فضيلته العفة ، ورذيلته إطلاق الهوى .

فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ، بها يحتمل الإنسان الخير والشر ، فمن قلَّ صبرهُ ، فَحَكَّمَ هواه على عقله ، فقد صيَّر المتبوع تابعاً ، والمأموم إماماً ، فلا جرم أن جميع ما يرومه ينعكس عليه ، فإنه يتأذَّى من حيث قدَّرَ النفعَ ، ويحزن من حيث أراد الفرح .

وإنما فُضِّل الآدمي على الحيوان البهيمي بالعقل الذي أُمر «٣ظ» بكفِّ الهوى ، فإذا لم يقبل قوله ، وحكَّمَ الهوى ، كان الحيوان البهيمي أعذر من الآدمي .

ويدلُّ على فضل خلاف الهوى : تقديم كلب الصيد ، وإكرامه على أبناء جنسه ، وذلك لمكان مخالفته للهوى من حبس ما صاده على صاحبه ، دون أكله خوفاً من عقوبته أو شكراً لنعمته .

واعلم أن الهوى في ضرب المثل : كالماء الجاري الحديد[2] الجرية ينحدر بسفينة الطبع ، والعقل مرادٌ ، فإن عقل المراد وتوانى مرَّ الماء بالسفينة .

---

(١) التعريف نفسه أورده في كتابه «ذم الهوى» ص١٢ ، ١٣ مع بعض الشرح والتفصيل .

(٢) على وزن «فعيل» مِنْ حدَّ ، أي : قوي الجريان .

وينبغي للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة في خلاف الهوى أسهل مما يَلقىٰ في موافقته ، وأقل ما يَلقى موافقو الهوى أنهم يصيرون الى حالة لا يلتذّون به فيها ، ثم لا يصبرون عنه ، لأنه يصير بالإدمان عادة ، كمُدْمني الجِماع وشراب الخمر .

والتفكر في هذه الأشياء تهوِّن على الإنسان رفض الهوى . ومما يهوِّن الهوى أن يتفكر الإنسان في نفسه ، فيعلم أنه لم يخلق لموافقة الهوى ، فإن الجَمَل يأكل أكثر منه ، والعصفور يسافد[1] أكثر ، والبهائم مطلقة في محبوباتها من غير حصر ولا شَوْبَ بهم وغم . فلما نقص حظ الآدمي من الشهوات ، ثم شيبت[2] بالنقص ، عُلم أنه لم يخلق لذلك .

وقد بيَّنتُ لك أن المذموم من الهوى ما أفْرَطَ ، وهو الذي يحكم عليه العقل بالخطأ . فأما ما تهواه[3] مما تضطر الى تناوله ويُعينها على إصلاح حالها فممدوح لا مذموم .

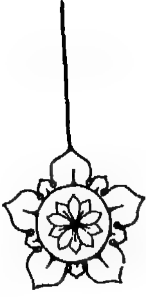
---

(١) أي : يُجامع .

(٢) شيبت : خُلِطَتْ .

(٣) الضمير «الها» يعود الى النفس .

الباب الثالث



في الفرق بين مايرى العقل ومايرى الهوى

/٤و

اعلم أن الهوى يدعو الى اللّذة من غير فكر في عاقبته ، وقد يعلم أن تلك اللذة تجلب ألماً يربو عليها ، وتمنع صاحبها نيل أمثالها[٤] ، والهوى مُعرض عن النظر في ذلك ، وتلك حالة البهائم إلاّ أنَّ البهائم أعذر ، لأنها لا ترى العاقبة . ولا ينبغي للعاقل أن ينزلَ عن رتبة بها شرف ، وارتفع الى مقام من حط .

فأما العقل ، فإنه يراقبُ العواقب ، وينظرُ في المصالح ، فمثله كمثل الرجل الحازم ، والطبيب الناصح ، ومثل الهوى كمثل الصبي الجاهل ، والمريض الشره .

فينبغي للّبيب إذا اختلف عقله وهواه ، وقد علمَ أن العقل عالم ناصح : أن يستشيره ، وأن يصبر على مضض ما يأمر به ، ويكفيه في إيثار العقل علمه بفضله . فإنْ رام زيادةَ دليلٍ على صحة قوله ، فيتأمل عواقب ما يجنيه الهوى على أربابه : من هتك الأستار ، والفضيحة بين الخلق ، وحط المنزلة ، وفوْت الفضائل ، وهل وكس[١] جاهٍ ، أو ذل عزيزٍ ، أو صيد طائرٍ ، إلاّ بموافقة الهوى .

ومما يوضح له الدليل أن يقدر بلوغ غرضه قبل نيله ، ثم ينظر في حاله بعد انقضاء لذته وما اكتسبه ، ويزن الالتذاذ بالجناية ، فيعلم حينئذ أنه قد خسر أضعاف ما ربح ، وقد أنشدوا في ذلك :

كَمْ لَـذَّةٍ مُستفـزَّةٍ فَـرَحـاً قَدْ انجلت عنْ غمومٍ آفـاتِ
كم شهـواتٍ سَلَبْنَ صاحِبَهـا ثَـوْبَ الـدِّيـانـاتِ والمـروءاتِ

---

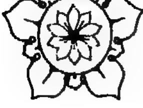
(٤) أمثالها من اللذات .

(١) الوَكْسُ : النقص والخِسّة والتوبيخ ، ووَكْسُ الجاه : نقصانه .

واعلم أن الإنسان إذا وافق هواه ، وإن لم يضره ، وجد من نفسه «٤/ط» ذُلًّا لمكان أنه مغلوب . وإذا قهر هواه ، وجد في نفسه عِزاً لأجل أنه غالب .

ثم أنت ترى الناس إذا شاهدوا زاهداً تعجَّبوا منه ، وقبَّلوا يده ، وما ذاكَ إلاّ أنه قَوِيَ على ترك ما ضعفوا عنه من مخالفة الهوى .

الباب الرابع



في دفع العشق عن النفس

هذا مرض قد تَلف[1] به خلق كثير، تارة في أبدانهم، وتارة في أديانهم، وتارة فيهما. ولأجله وضعتُ كتاب «ذم الهوى»[2]، وقد ذكرتُ هناك من الأدوية ما يكفي ويشفي، إلا أني أذكر ههنا جملة لئلا يخلو الكتاب مما قد رسم فيه، فأقول :

من احتمى عن التخليط بغض البصر، وكفِّ النظر، سلم من هذا المرض، فإذا لم يحتمِ حصَلَ عنده من المرض بمقدار تخليطه، فإن تداركَ الأمر قبل استحكامه فربما نفع الدواء، وإنْ تركه الى أن يستحكم لم ينفعه علاج.

واعلم أنَّ مجرَّد النظر الى المستحسن لا يكاد يوجب العشق، وإنما إذا ازداد[3] النظر يحصّله، ويعينه قوة الطمع، فيساعده الشباب والشهوة. فمن أراد العلاج، فليبادر به قبلٍ أن يستحكم المرض، وذلك بقطع السبب، والصبر في ذلك على المضض، فإنَّ اليأس أعظم دواء، وأقوى معين على ذلك : خوف الله تعالى، وزجر النفس الأبية عن مواقف الذل، وتذكّر عيوب المحبوب الباطنة، كما قال ابن مسعود[4] : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مناتنها[5].

---

(١) أي : هلك.

(٢) انظر فصل «العشق».

(٣) في المخطوط «وإنما يزداد النظر محصله».

(٤) هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، من أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً وقربة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أول من جهر بقراءة القرآن الكريم بمكـة، كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفيقه في حله وترحاله، يدخل عليه كل وقت، ولي بيت مال الكوفة، له ٨٤٨ حديثاً، كان يحب الاكثار من التطيب، توفي سنة ٣٢هـ عن نحو ستين عاماً.

(٥) معايبها، ومثالبها وفي كتاب «ذم الهوى» مناتنها.

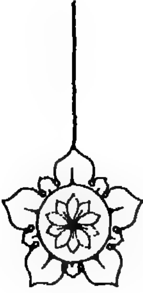
ومتى كان المحبوب مقدوراً «٥/و» عليه مباحاً كان الجمع بينهما أعظم الدواء ، وإلاّ فالنكاح في الجملة يُخفف المرض ، واستجداد الزوجات ، واستحداث الجواري ، وطول السفر ، والتفكر في خيانة المحبوب وتجنبه ، والنظر في كتب الزهد ، وذكر الموت ، وعيادة المرضى ، وزيارة القبور .

ثم يتفكر في وجود غرضه وانقضائه ، وسآمته مع الزمان ، وتغيُّر الخلق ، وليتصفح العبر في نفسه وغيره ، فلعل غيره يأخذ بيده . فينتاشه[1] من هذه الهوة ، ويجتذبه من هذه الورطة .

---

(١) أي ينقذه .

الباب الخامس



في دفع الشّره

اعلم أن الشَّره إذا أطلق انصرف إلى موافقة الهوى في المطاعم، وكم قد أوجبت من أمر فزالت بأربابها إلى التلف، وهي علّة تتولد عن قوة النفس الشهوانية.

قال الحارث بن كلدة :[1] الذي قتل البريَّة، وأهلكَ السباع في البرية، إدخال الطعام على الطعام. وقال «٥/ظ» غيره : لو قيل لأهل القبور ما كان سبب آجالكم لقالوا : التخم.

وساق بسنده الى الحسن[2]، قال : قيل لسُمرة[3] : إن ابنك لم ينم الليلة !

قال : أَبَشْماً ؟[4]

قيل : بشماً.

قال : لو مات لم أصلِّ عليه.

---

(١) هو الحارث بن كلدة الثقفي، طبيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين، من الطائف، رحل الى بلاد فارس وأخذ الطب عن أهلها، مولده قبل الاسلام، كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من به علّة أن يأتيه فيتطبب عنده، له كتاب «محاورة في الطب» توفي نحو ٥٠هـ «طبقات الأطباء ١/١٠٩» «الأعلام ٢/١٥٧».

(٢) هو الحسن البصري بن يسار، تابعي جليل، امام أهل البصرة، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، توفي سنة ١١٠هـ «حلية الأولياء ٢/١٣١» «الأزهرية ٣/٧٠٥» «الأعلام ٢/٢٢٧».

(٣) هو سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، صحابي، من الشجعان القادة، نشأ في المدينة، ونزل البصرة، كتب «رسالة» الى بنيه فيها علم كثير، توفي سنة ٦٠هـ

(٤) اكثر من الطعام حتى التخمة.

البشم في الطعام والبغر[٥] في الماء .

قال رجل لرجل يعيّره : مات أبوك بشماً ، وماتت أُمك بغراً !

وعن عقبة الراسبي ، قال : دخلتُ على الحسن ، فوافقته يتغذى ، فقال : هلم .

فقلت : أكلتُ حتى لا أستطيع أن آكل .

فقال : سبحان الله ، ويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟!

فصل

(عيوب الشبع)

فصل

واعلم أن العاقل يجب ان يأكل ليبقى ، والجاهلٍ يؤثر أن يبقى ليأكل ورب لقمةٍ منعت لقمات ، وكانت سبب الهلاك ، وقد بيَّنْتُ عيوب الشبع في كتاب «لقط المنافع»[١] ، وإنما المقصود ههنا زجر النفس الشرهة لتكفّ الكفّ عمّا يؤذيها . وفيما ابتدأتُ به من ذكر فضل العقل وذم الهوى ما يكفي في الامتناع من كل رذيلة ، وهجر ما يخاف عواقبه .

---

(٥) كثرة الشرب .

(١) وهو مطبوع ، وله مختصر أيضاً بعنوان : «مختصر لقط المنافع» مطبوع أيضاً بتحقيق أحمد يوسف الدقاق . طبع دار المأمون بدمشق .

فصل
(الشرهُ في الجماع)

وقد يكون الشره في الجماع ، وقد بيَّنت في كتاب «اللُّقط»[1] : أنه كلما كثر استعماله امتنعتْ أوعية «المني»[2] ، فانجذب إليها غذاء ليس بنضيج ، واستلبت قوى الأصول ؛ وهي الدماغ ، والقلب ، والكبد ، فتبرد الحرارة الغريزية ، ويسرع لذلك الهلاك .

ثم إن صورة الوطء تنبو[3] عنها النفوس الشريفة ، إلا أن يدفع شر محتقن أو يطلب ولد ، فأما أن يصير عادة يكون بالتمتع بنفس الفعل ، فتلك مزاحمة البهائم .

فصل
(الشره في جمع المال)

وقد يقع الشره المال ٦/ و وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة ؛ لأن المال لا يُراد لنفسه ، وإنما يُراد لنفسه ، وإنما يُراد لغيره . ولا ينكر على من جمع مالاً غنى للنفس عنه ، فاستغنى به عن الناس ، وأغنى أولاده ، وبذل بعضه للمحتاجين .

إلا أنه ينبغي للعاقل بعد حصول المقدار والمتوسط من ذلك أن لا يضيع

---

(١) أي ، كتابه «لقط المنافع»

(٢) ماء الرجل الذي يخرج من صلبه .

(٣) تنبو : تعافها .

الزمان الشريف ، وأن يخاطر بالروح التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب البحار ، وما أحسن قول الشاعر :

وَمَنْ يُنْفِق الأَيامَ في جمعِ مالِهِ ... مخافَةَ فقرٍ فالَّـذي فَعَلَ الفَقْرُ

وكم قد رأينا وسمعنا عن أقوامٍ يُقتِّرون على أنفسهم في الإنفاق ، ويركبون مع كبر السِّن البحار ليربحوا بزعمهم ، فهلكوا في أسفارهم ، وما بلغوا بعض أغراضهم .

وهذا المرض ينبغي أن يُداوى بتلمُّح المقصود من المال ، والموازنة بين حصوله وبين المخاطرة بأنفس نفيس ، وهي النفس والوقت ، فمن شاور عقله فَهِمَ المراد ، ومن غلبه مرضُ الحرص هلك في بيداء الشَّره ، ولا وارث إلا وارث إلا المطيةُ والرَّحل .

فصل

(الشره في فنون مايلتذ به)

وقد يقع الشره في فنون ما يلتذ به من الأبنية المنقوشة ، والخيل المسومة ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك .

وهذا مرضٌ أصله موافقة الهوى ، وعلاجه أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال شديد عزيز ، والتبذير ممنوع منه ، وأن الله تعالى لا ينظر إلى من جرَّ ثوبه خيلاء ، وأنَّ كل شيء يؤجر المؤمن عليه إلاَّ البناء .

فالعاقل مَنْ نظَر في مقدار إقامته ، وتلمَّح بيت نقلته ،[1] فحينئذ يقنع من الثبات بما يواريه ، ومن البنيان ما يؤويه ٦/ ظ .

وفي الحديث : أن نوحاً عليه السلام لبث في بَيْتِ شَعْر[2] الف سنة إلا خمسين عاماً .

---

(١) أي قبره الذي سوف يؤويه .

(٢) بيوت كانت تُقام من جلود الغنم والماعز والإبل .

وأن رسول الله ﷺ ما وضع لبنة على لبنة[٣] .

وكان في ثوب عمر اثنا عشر رقعة[١] .

فهؤلاء فهموا أن الدنيا مفازة[٢] ، والمفازة لا تتوطن ؛ فمن فاته العلم بهذا مِرضَ ، مرضَ الشره ، وعلاجه النظر في العلم ، والتأمل بسير العلماء العقلاء .

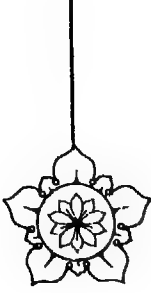
---

(٣) في هذا مبالغة لأن حجرات زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كانت من اللبن «حجارة من طين»

(١) انظر «أخبار عمر» للأخوين طنطاوي .

(٢) مفازة : أي صحراء ، وسميت مفازة أملاً بالفوز منها .

الباب السادس



في رفض رئاسة الدنيا

اعلم أن النفس تحب الرِّفعة والعلو على جنسها ، فتؤثر الإمارة والولاية لمكانة الأمر والنهي ، وهذا وإن كان مطلوباً إلا أن فيه مخاطرات : أقلها العزل بعد الولاية ، وأعظمها الجور في الحكومة ، وأوسطها تضييع الزمان إذا لم تصحّ للوالي نية .

وينبغي لمن أحب الولاية أن يعلم أنه إنما يتخايلها عظيمة ما لم ينلها ، فإذا نالها هانت عنده ، وسما إلى غيرها ، فاللَّذة تزول ، والأوزار تبقى ، والمخاطرة بالنفس والدين ؛ فالتفكير في هذه الأشياء علاج .

بسنده إلى أبي أُمامة ، عن النبي ﷺ ، قال : «ما مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشرة ، فما فوقَ ذلكَ إلاَّ أتى الله عزَّ وجلَّ يومَ القِيامةِ مغلولةً يدَهُ إلى عنقِهِ ، فكه برّه ، أو أوبقه[3] إثمهُ ؛ أوَّلها ملامَةٌ ، وأوْسطها ندامةٌ ، وآخرها خزيٌ يومَ القيامةِ»[4] .

بسنده إلى أبي هريرة مرفوعاً : «وَيْلٌ للأُمراءِ ، وَيْلٌ للعرفاء[1] ، وَيْلٌ للأُمناء . ليتمنَّين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين

---

(٣) أوبقه ؛ أهلكه .

(٤) سنن الدارمي في السير ، باب ٧١ ، مسند أحمد ٤٣١/٢ ، ٢٦٧/٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣ ، الطبراني في «الكبير» ٢٠٤/٨ ، الهيثمي في مجمع الزوائد ، وقال : رواه أحمد والطبراني ، وفيه يزيد بن أبي مالك ، وثقه ابن حيان وغيره ، وبقية رجاله ثقات .

(١) العرفاء : جمع عريف ، وهو الذي يقوم بأمر الطائفة من الناس .

السماء والأرض ، ولم يكونوا عملوا على شيء»[2] .

وفي إفراد مسلم[3] من حديث أبي ذر ، قال : قُلتُ : يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال : فضربَ بيده ٧/ و على مكبي ، ثم قال : «يا أبا ذَر إنَّك ضعيف ، وإنَّها أمانَةٌ ، وإنها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامةٌ ، إلَّا مَنْ أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها» . وفي لفظ آخر : «يا أبا ذر إني أحِبُّ لنفسي ، لا تأمرنَّ على اثنين ، ولا تولين مال يتيم»[4] .

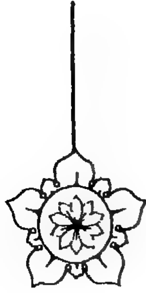
---

(٢) أحمد في مسنده ٣٥٢/٢ . البيهقي ٩٧/١٠ . ابن عساكر ١٧١/٦ .

(٣) مسلم في الإمارة برقم ١٨٢٥ ، وأبو داود في الوصايا ٣ ، والنسائي في الوصايا ١٠ .

(٤) مسلم في الإمارة برقم ١٨٢٦ بزيادة : «إني أراك ضعيفاً» بعد «يا أبا ذر» .

الباب السابع



في دفع البخل

اعلم أن مجرد الإمساك للمال لا يسمى بخلاً ، لأن الإنسان قد يمسك فاضل المال لحاجته ، ولحوادث دهره ، ولأجل عياله وأقاربه . وهذا كله من باب الحزم ؛ فلا يذمّ ، وقد يجد قوم قوّةً في النفس بحفظ المال .

وإنما يقع اسم البخل على مانع الحق الواجب ، قال ابن عمر(٥) : من أدّى الزكاة فليس ببخيل .

ثم يُقال لمن منع مالا يضره ولا يكاد يؤثر فيه مما يُنتفع به الناس : بخيل ، وقد قال النبي ﷺ : «وأيّ داءٍ أدوأ من البخلِ»(١) .

قال أبو محمد الرامهرمزي : إنما يُشبَّهُ البخلُ : بالداء ؛ لأنه يُفسد الخلق ، ويدفع عن السؤدد(٢) ، ويُكسِبُ سوء الثناء والمذمة ، كما أن الداء يضعف الجسم ، ويبطل الشهوة ، ويغيِّر اللون .

وقد قالت الحكماء : الكريم حرٌّ ؛ لأنه يملك ماله ، والبخيل لا يستحق اسم الحرية ؛ لأن ماله يملكه .

---

(٥) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابي من العلماء الفقهاء ، بويع بالخلافة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه فأبى ، توفي بمكة سنة ٧٣ هـ «الإصابة ٤٧٢٥» «الأعلام ١٠٨/٤» .

(١) البخاري في الأدب المفرد ٢٩٦ ، مسند الإمام أحمد ٣٠٧/٣ ، ٣٠٨ ، مستدرك الحاكم ٢١٩/٣ .

(٢) السيادة والمجد .

(٣) مسلم في البر ٥٦ ، مسند الإمام أحمد ١٦٠/٢ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، ٣٢٣/٣ .

وبسنده عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : «إيَّاكُمْ والشُّحّ ، فإنَّ الشحّ أهلكَ مَنْ كان قَبْلَكم ، أمرَهُمْ بالقطيعةِ فقطعُوا ، وأمرَهُم بالبخلِ فبخِلوا ، وأمرَهم بالفجورِ ففجروا»[3] .

وقال عليه السلام : «خِصلتانِ لا تجتمعانِ في مؤمنٍ : البخلُ ، وسوءُ الخُلُقِ»[4] .

قال الخطابي[5] : الشحُّ أبلغ من البخل ، فهو بمنزلةِ الجنس ، والبخل بمنزلة النوع .

وقال بعضهم : البخلُ ٧/ ظ أنْ يضنَّ بماله ، والشحّ أن يبخلَ بماله ومعروفه .

وقال بشر الحافي[1] : لقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين .

وعلاجُ البخل أن يتفكَّر فيرى أن فقراء بنى آدم إخوانه ، وقد أُوثر عليهم وأحوجوا إليه ، فليجعل شكر المنعم مواساة الإخوان ، ولينظر في شرف الكرم ، وليعلم أنه يسترق الأحرار إذا أُسدي إليهم معروفاً ، وينهب عرضه الأشرار إذا بخل ، وليتيقن أنه سيترك ما في يديه ذميماً فليخرج منه قبل أن يخرج عنه .

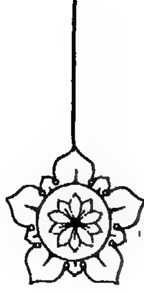
---

(٤) الترمذي في البراع .

(٥) هو حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستي ، أبو سليمان ، فقيه . تحدث له «معالم السنن» في شرح سنن أبي داود و «بيان اعجاز القرآن» و «غريب الحديث» وغير ذلك ، توفي سنة ٣٨٨ هـ «وفيات الأليان ١٦٦/١» «الأعلام ٢٧٣/٢» .

(١) هو بشر بن الحارث بن علي المروزي ، أبو نصر ، المعروف بالحافي ، من كبار الصالحين ، له في الودع والزهد أخبار ، وهو من الثقات في الحديث ، سكن بغداد ، وتوفي بها سنة ٢٢٧ هـ . «وفيات الأعيان ٩٠/١» «حلية الأولياء ٣٣٦/٨» .

الباب الثامن



في النهي عن التبذير

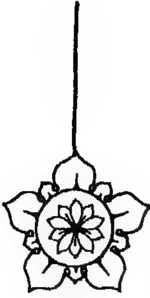
التبذير مما يأمُر به الهوى ، وينهى عنه العقل ، وأحسن الأدب في هذا الباب تأديب الحق سبحانه وتعالى حين قال :(٢) الآية .

واعلم أن الإنسان قد يعُطى رزق شهر في يوم ، فإذا بذّر فيه بقي شهراً يعاني البلاء ، وإذا دبَّر فيه عاش شهراً طيِّب العيش .

وعلاج مرض التبذير النظُر في العواقب ، والحذرُ مما يجوز كونه من الحاجة إلى الناس والفقر ؛ فذلك يكف كف التبذير .

---

(٢) والآية بتمامها : وآتِ ذا القربى حقّهُ والمسكينَ وابن السبيلِ ولا تبذرْ تبذيراً . إنَّ المبذِّرين كانوا اخوانَ الشيطانُ لربِّهِ كَفُوراً [الاسراء : ٢٦ ، ٢٧] .



الباب التاسع

في بيان مقدار الاكتساب والانفاق

الباب التاسع

فينبغي للعاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه ، ويقتني ما يعلم أنه لو حدث به حادثة كان في المقتنى عوضٌ عما ذهب ، ولو عرض له مانع من الاكتساب قام المقتنى بحاجته بقية عمره ، ولو جاءه أولاد واحتاج إلى فضل زوجة وخادم [1] واحتاج ولده إلى مثل ذلك كان في كسبه ما يكفيه .

وفي الجملة ينبغي أن تكون النفقة أقل من الكسب ليقتني من الفضل ما يكون مُعَدّاً لحادثةٍ لا تؤمن .

وهذا ما يأمر ٨/ و به العقل الناظر في العواقب ، ولا يبالي به الهوى الناظر إلى الحالة الحاضرة .

وساق بسنده إلى أبي الدرداء[2] مرفوعاً : «من فقه الرجل بُعْدُ النظر في معيشته»[3] ، وقد روي موقوفاً[3] .

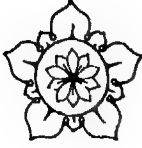
---

(١) أي زوجة زيادة أو خادم .

(٢) هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري ، صحابي جليل ، توفي في آخر خلافة عثمان رضي الله عنهما ، وقيل بعد ذلك «الإصابة ٣/٤٥» .

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/١٩٤ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/٢١١ .

الباب العاشر



في ذم الكذب

الباب العاشر

هذا من العوارض التي يدعو إليها الهوى ، وذلك أن الإنسان لمحبته الرئاسة يؤثر أن يكون مُخبِّراً معلّماً لعلمه بفضل المخبِر على المخبَر .

وعلاج هذا المرض أن يعلم عقوبة الله للكاذب ، وأن يتيقّن أنه مع استدامة الكذب لابد أن يطلع على حالة فينقص نقصاً لا يتلافى ، فيرين حياؤه وخجله واحتفار الناس له وتكذيبهم إياه في الصدق ، وقلّة ثقتهم به على ما اكتذبه .

بسنده عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما يزالُ الرَّجلُ يكذِبَ ويتحرّى الكذِبِ حتىَّ يُكتبَ عندَ الله كذّاباً**»[1] وقال ابن مسعود : «كل الخلال[2] يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب»[3] .

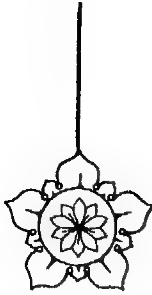
---

(١) مسلم في البر والصلة برقم ٢٦٠٧

(٢) الخلال : الصفات

(٣) الحديث موقوف .

الباب الحادي عشر



في دفع الحسد

الباب الحادي عشر

الحسد ، تمني زوال نعمة المحسود ، وإن لم يصر للحاسد مثلها . وسبب ذلك حب الميزة على الجنس ، وكراهة المساواة ، فإذا حصلت للغير نعمة تميّز بها تألّم هذا الإنسان لتلك الميزة أو بمساواته له فيها ، فلا يزيل ذلك الألم إلّا زوال تلك النعمة عن المحسود .

وهذا أمرٌ لا يكاد أحدٌ ينفكُّ منه في باطنه ، ولا يأثم الإنسان بوجود ذلك ، بل يأثم بالتمني لزوال النعمة عن أخيه المسلم .

واعلم أن الحسد يوجب طول السهر ، وقلة الغذاء ، ورداءة اللون ، وفساد المزاج ، ودوام ٨/ ظا الكمد .

قبل لأعرابيّ عاش مائة وعشرين سنة : ما أطول عمرك ؟ .

فقال : تركتُ الحسد ، فبقيت .

واعلم أنه لا يقع الحسد إلّا في أُمور الدنيا ، فإنك لا ترى أحداً يحسدُ قوّام الليل ، ولا صوّام النهار ، ولا العلماءَ على العلم ، بل على الصِّيت والذكر .

وعلاج هذا المرض : أنْ يعلمَ أوّلاً أنَّ الأقدار السابقة لابد أن تجري ، وأن الاحتيال في صرف المقدور غير ممكن ، وأن القسّام حكيم ، ثم هو مالك يعطي ويحرم ، فهو الذي خلق الطرف [1] السابق والكودن [2] ، وكأن الحاسد مضاد لإرادة المعطى سبحانه .

وقال بعض الحكماء :

---

(١) الطرف : الخيل الأصيل .

(٢) الكودن : الخيل الهجين .

أَلا قُلْ لمنْ كانَ لي حاسِداً أتدري على من أسأتَ الأدبْ
أسأتَ على الله في فعلِهِ لأنَّكَ لم ترضَ لي ما وهبْ
فجازاكَ عنِّي بأَنْ زادني وَسَدَّ عليكَ وجوهَ الطلبْ

ثم أن المحسود لم يُنقص الحاسدَ من رزقه ، ولم يأخذ شيئاً من يده ، فقصدُ الحاسد زوال ما أُعطيه ظلم محض .

ثم ينبغي للحاسد أن ينظر في حال المحسود ، فإن كان إنما نال الدنيا فقط ، فهذا ينبغي أن يُرحم لا أن يُحسَدَ ؛ لأنَّ الذي ناله في الغالب عليه لا له ، وهل فضول الدنيا إلا هموم كما قال المتنبي[3] :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ماقاته وفضول العيش أشغال ،

وبيان هذا أنَّ الكثيرَ المالِ شديدُ الخوف عليه ، والكثير الجواري شديد الحذر عليهنّ ، قوي الاهتمام بهنّ ، والوالي خائف من ٩/و العزل .

ثم ليعلم أن النعم كثيرة الأكدار ، ثم هي قليلة اللبث ، والمصائب تردفها ؛ فإنَّ صاحب النعمة ينتظر زوالها أو زواله عنها .

ثم ليوقن أن ما يحسد عليه المحسود ليس هو عند المحسود كما هو عند الحاسد ، فإن الناس يظنون في أرباب المناصب أنهم في غاية اللذة ، ولا يدرون أن الإنسان يسمو إلى أمرٍ ، فإذا ناله بَرَدَ عنده ، وصار عادة له ، فهو يسمو إلى ما هو أعلى منه ، وهذا الحاسد يرى الأمر بعين الجدة والغبطة .

وليعلم الحاسد أنه لو عاقبه المحسود لما ناله بأشدّ من الأذى الذي هو فيه ، فإن لم ينتفع بشيء من هذا العلاج فليسعَ في التسبُّب إلى مثل ما نال المحسود ، فقد قال بعض السلف : لقد خشيتُ الهمَّ حتى في الحسد ، فإن الرجل إذا حسدَ جارَه

---

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن ، أبو الطيب المتنبي ، الشاعر المعروف توفي سنة ٣٥٤ هـ «وفيات الأعيان ١/٣٦» الأعلام ١/١١٥».

(١) قليلة البقاء

على الغنى سافر وتاجر ليصيرَ مثله ، أو على العلم سهر وتعلم فقد صار الناس يُحبون البطالة ، ثم يذمُّون الواصل إلى المعالي ، وما أحسن ما قال الرضي .

ذنبي إلى الهم الكـوادن أنـني الطرف المطهم[٢] والأغر[٣] الأقرح[٤]

يُـولـونني خـزر[١] العيـونِ لأنني غلَّسْت[٢] في طلب العلى وتصبَّحوا

وجذبتُ بالطِوَل[٣] الذي لم يجذبوا ومتحت[٤] بالغرب الذي لم يمتحوا

لو لم تكن لي في العيون مهابة لم يطعن الأعداء فيَّ ويقـدحوا

فإن لم ينل ما نال المحسود ، فلتكن مجاهدته إمساك لسانه عن ثلبه وحبس ما في قلبه .

فصل (الأحاديث التي تذم الحسد)

وقد جاءت الأحادث بذم الحسد ، بسنده إلى الزبير بن العوام[٥] ، قال : قال رسول الله ﷺ : **دبَّ إلَيْكم داءُ الأُمم قبلكم : الحسدُ والبغضاءُ ، والبغضاءُ هي الحالقةُ ، حالقةُ الدِّين وحالقةُ الشَّعْرِ ، والَّذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ لا تُؤمِنُوا حتَّى تَحابُّوا ، أفلا أُنبِئكم بشيءٍ إذا فَعَلْتموهُ تحابَبْتُم ، أَفْشُوا السَّلامَ بينَكُمْ»[٦]** .

---

(٢) المطهم : الخيل الأصيل الكريم الحسب الجميل من كل شيء

(٣) في جبهته بياض .

(٤) بياض غرته بقدر الدرهم .

(١) أي ينظرون إليه شزراً .

(٢) الغلسُ : ظلمة آخر الليل : أي بكَّر في طلب العلوم . وهم تأخَّروا

(٣) الحبل الشديد .

(٤) استقى بالدلو الوافرة الكبيرة

(٥) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي الصحابي الشجاع ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من سلَّ سيفاً في الإسلام ، أسلم وله ١٢ سنة ، قُتل غيلة يوم الجمل سنة ٣٦ هـ له ٣٨ حديثاً «حلية الأولياء ١/ ٨٩» «الأعلام ٣/ ٤٣» .

(٦) رواه الترمذي في القيامة ٢٥١٠ ، وأبو داود في الأدب ، والإمام أحمد في مسنده ١/ ١٦٥ ، ١٦٧ ، والبيهقي ١٠/ ٢٣٢ .

وبسنده قال عمر بن ميمون : رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش ، فغبطه بمكانه ، فسأل عنه ، فقال : نُبِرُكَ بعملهِ : لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يعقُّ والديه .

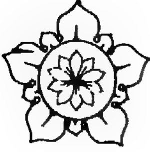
وبسنده إلى سالم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا حَسَدَ إلاَّ في اثنتين : رجلٌ آتاهُ الله عزَّ وجلَّ القرآنَ ، فهو يقومُ بهِ آناءَ اللَّيْل والنَّهار ، ورَجُلٌ آتاهُ الله مالاً فهو يُنفقُهُ في الحقِّ آناءَ الليْلِ والنَّهارِ» أخرجاه في الصحيحين[٣] . فإن قيل : إذا كان الحسد مذموماً فكيفَ مدحه ها هنا . فالجواب : أن المراد بهذا : الغبطة ، مسمَّاها بالحسد تجوُّزاً ، والغبطة أن تتمنى مثل ما للإنسان من غير حب زواله .

---

(١) هو عمر بن ميمون بن بحر بن سعد البلخي ، أبو علي القاضي .

(٣) متفق عليه : البخاري في فضائل القرآن ، باب اغتباط صاحب القرآن ، وفي التوحيد ، باب قول النبي ﷺ : رجل آتاه . . . ، ومسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، والترمذي برقم ١٩٣٧ في البر والصلة .

الباب الثاني عشر



في دفع الحقد

الحقد بقاء أثر القبيح من المحقود عليه في نفس ، ولعمري أن العقل يقضي ببقاء أثر القبيح كما يقضى ببقاء أثر الجميل .

وبسنده إلى عبد الله بن كعب بن مالك(٤) ، قال : سمعت كعب بن مالك يحدِّث في حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فذكر القصة ، ونزول توبته ، قال : فدخلتُ المسجدَ فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقامَ إليَّ طلحةُ بن عبيد الله(٥) يهرول ، حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ١٠/و ، قال : فكان كعبُ : لا ينساها لطلحةَ . أخرجاه في الصحيحين(٦) .

فإذا ثبت أن الجميل لا ينُسى ، فالقبيح كذلك ، إلا أنه يستُحب الاجتهاد في إزالة أثر القبيح من القلب .

وعلاج ذلك أن يكون بالعفو والصفح . وللعفو محلان :

أحدهما : رؤية الثواب للعافي .

والثاني : شكر من جعل هذا في مرتبة من يعفو ، وذلك في منزلة من يهفو .

ومن كمال العفو حصول الرضا ، وذلك بمحو ما في القلب .

وههنا علاج أدقّ من هذا ، وهو أن يرى الأشياء من المقّدر .

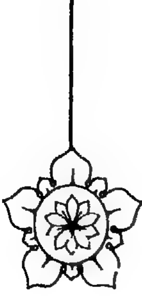
---

(٤) هو كعب بن مالك بن عمرو ، الأنصاري ، صحابي ، من أكابر الشعراء ، له ٨٠ حديثاً ، توفي سنة ٥٠ هـ «الإصابة ٧٤٣٣» «الإعلام ٢٢٩/٥»

(٥) أحد العشرة المبشرية بالجنة .

(٦) البخاري في تفسير سورة ٩ ، ومسلم في التوبة : ٥٣

الباب الثالث عشر



في دفع الغضب

لقد بيّنا أن الغضب إنما رُكِّب في طبع الآدمي ليحثه على دفع الأذى عنه ، والانتقام من المؤذي له ، وإنما المذموم إفراطه ؛ فإنه حينئذ يزيل التماسك ، ويخرج عن الاعتدال ، فيحمل على تجاوز الصواب ، والغضب حرارة تنتشر عند وجود ما يغضب ، فيغلي عندها دم اللذات طلباً للانتقام ، وربما أثر الحمى وسببه في الغالب الكبر ؛ فإن الإنسان لا يغضب على من هو أعلى منه .

وعلاجه أولاً أن يتثبت الغضبان ، ويغيِّرَ حاله ؛ فإن كان ناطقاً سكت ، وإن كان قائماً قعد ، وإن كان قاعداً اضطجع لِيسكن تلك الفَوْرة ، وإنْ خرجَ في الحال عن المكان ، وبعُدَ عن المغضوب عليه كان أصلح ، ثم يتفكر في فضل كظم الغيظ ، فقد مدح الله سبحانه القوم ، فقال : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[1] . فإن رأى ما سلط عليه بذنبه أو شاهد قدرة المسلط على ما ذكرنا في الحقد هان الأمر .

فصل (الأحاديث التي تذم الغضب)

وقد جاء في هذا أحاديث ، فذكر بسنده إلى أبي هريرة ، قال : أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ ، فقال : أوْصني ، قال : «لا تغضبْ» فردد مراراً ، قال : «لا تغضبْ» . رواه البخاري[2] .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

(٢) البخاري في الأدب ، باب الحذر من الغضب ، الترمذي في البر والصلة برقم ٢٠٢١ ، الموطأ في حسن الخلف ٢/٩٠٦ .

وقال رسول الله ﷺ وسلم : «ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ ، إنّما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ»[٣] . أخرجاه .

وأخرجا من حديث سليمان بن صرد[٤] ، قال : كنت جالساً مع النبي ﷺ ، ورجلان يستبان ، وأحدهما قد آحمر وجهه ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبي ﷺ : «إني لأَعْلَمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنهُ ما يجدُ ، لو قال : أعوذُ بالله من الشَّيطانِ الرجيم ذهبَ عنهُ ما يجدُ» ، فقالوا له : إن النبي ﷺ قال : «نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقال أوَ بي جنون[١] .

وروى أبو دواد في سننه[٢] من حديث أبي ذر ، عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا غضِبَ أحدُكم وهو قائمٌ فليجلسْ ، فإنْ ذهبَ عنهُ الغضبُ وإلاَّ فليضطجعْ» .

قال الخطابي : القائم متهيىءٌ للحركة والبطش ، والقاعد دونه في هذا المعنى .

وفي حديث ابن عباس[٣] عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا غضبَ أحدُكم فليسكتْ»[٤] .

وقال الأحنف[٥] ما اعترض التثبت في الغضب إلا وهي شيطان العجلة .

---

(٣) البخاري في الأدب ، باب الحذر من الغضب . ومسلم في البر والصلة ٢٦٠٩ ، الموطّأ في حسن الخلق ٩٠٦/٢ .

(٤) هو سليمان بن صرد بن الجون الخزاعي ، صحابي ، من الزعماء القادة ، شهد الجمل ، وصفين مع علي رضي الله عنه ، ترأس التوابين ، قُتل سنة ٦٥هـ ، له ١٥ حديثاً «الإصابة ٣٤٥٠» «الأعلام ١٢٧/٣» . . .

(١) البخاري في الأدب ، باب الحذر من الغضب ، وباب ما ينهى من الباب واللغو ، وفي بدء الخلق . باب صفة ابليس وجنوده . ومسلم في البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٦١٠ ، وأبو داود في الأدب ٤٧٨١ .

(٢) أبو داود في الأدب ، باب ما يقال عند الغضب ، ومسند أحمد ١٥٢/٥ مسند أحمد ٢٣٩/١

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، الصحابي الجليل ، له ١٦٦٠ حديثاً ، توفي سنة ٦٨ هـ «الإصابة برقم ٤٧٧٢» «الأعلام ٩٥/٤» .

(٥) هو الأحنف بن قيس بن معادية التميمي . أبو بحر ، أحد العظماء الدهاة ، الفصحاء الشجعان الفاتحين ، يُضرب به المثل في الحلم ، أدرك النبي ﷺ ، ولم يره ، أخباره كثيرة ، وخطبه وكلماته في شتى الكتب ، توفي بالكوفة سنة ٧٢ هـ «وفيات الأيمان ٢٣٠/١ الأعلام ٢٧٦/١» .

فصل

(عواقب الغضب وعلاجه)

ومتى لم يسكن الغضبان عند شدة فورته لم يؤمن أن تبدر منه نكاية[٦] يندم عليها إما في نفسه أو في المغضوب عليه ، فكم ممن غضب فقتل وجرح أو كسر عضو ولده ، ثم بقي الدهر نادماً على ما فعل .

ومنهم من ينكأ في نفسه ، فإن رجلاً غضب مرة ، فصاح ، فنفث[١] الدم في الحال ، وأدى به الأمر إلى الهلاك فمات .

وَلَكَمَ رجلٌ رجلاً ، فانكسرتْ أصابع اللاَّكم ولم يستضر الملكوم .

ومن العلاج أن يتصور الغضبان حاله عند الغضب ، ثم يتصور حله عند السكون ، حينئذ يعلم أن حالة الغضب حالة جنون ، وخروج عن مقتضى العقل ، ومتى لم ينثن عزم الغضبان عن ضرب المغضوب عليه ، فآستقر وغير ذلك ووعد نفسه بالفعل بشرط التثبُّت ، فإنه إذا حصل التثبت رأى قبح ما عزم عليه فترك .

فصل

(غضب السلف الصالح)

وقد كان السلف إذا غضبوا غفروا وصفحوا طلباً لفضيلة العفو وكظم الغيظ .

ومنهم من يرى السبب في إغضابه ذنوب نفسه .

ومنهم من يرى أنه مُختَبرٌ ، إلى غير ذلك مما ذكرناه في باب الحقد . وفي بعض كتب الله تعالى[٢] «يا أبنَ آدمَ اذكرني إذا غضبتَ أذْكُرُكَ إذا غضبتُ ، فلا أمحقُكَ

---

(٦) جرح أو إصابة .

(١) بصق دماً .

(٢) يقصد بذلك التوراة أو الأنجيل أو الزبور .

معَ مَنْ أحقَ ، وإذا ظُلِمْتَ فاَرْضَ بنَصرتي ؛ فإنّ نُصرتي خيرٌ لك من نُصرتِكَ لنفسِكَ» .

وقال مورق : ما تكلَّمتُ بكلمةٍ بشيء في الغضب فندمتُ عليه في الرضا .

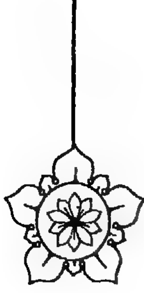
وكان ابن عون لا يغضب ، فإذا أغضبه الرجل ، قال : بارك الله فيك .

فصل

(لا معاقبة في حال الغضب)

ولا ينبغي للغضبان على الشخص أن يعاقبه في حالة غضبه ، وإن كان مُستحقاً للعقوبة ، بل يمهل حتى يسكن الغضب ، لتكون العقوبة بمقدار الإساءة لا بمقدار الغضب . أُتِيَ عمر بن عبد العزيز برجل كان واجداً عليه ، فقال : لولا أني غضبان لضربتك ، ثم خلّى سبيله .

الباب الرابع عشر



في دفع الكبر

الكبر : تعظيم شأن النفس ، واحتقار الغير ، وذلك يكون سبب الترفع على مَنْ هو دونه ، إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة أو غير ذلك .

وعلامة الكبر : الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال ، والفخر ، ومحبة تعظيم الناس له .

وعلاج ذلك نوعنا) جملي ، وتفصيلي . فأما الجملي ، فنوعان : علمي ، وعملي : فالعلمي في الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر ، وأما العملي فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم .

أما التفصيلي فأن ينظر إلى رذائل النفس ، وأن يعلم أن ا يتكبر به إن كان مالاً ، فهو مأخوذ منه عن قريب ، والفضل إنما يكون في الغنى عن الشيء لا به ، لأن الغنى بالشيء فقير إليه ، وإن كان علماً فقد سبقه خلق كثير أعلم منه ، ثم علمه ينهاه عن حالته ، فهو حجة عليه . وكذلك إن كان عملاً ثم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصة .

فصل

(أحاديث في ذم الكبر)

ذكر بسنده إلى أبي سلمة[1] ، قال : الْتقى عبد الله بن عمرو[2] وابن عمر[3] علي المروة[4] فنزلا فتحدثا ، ثم مضى عبد الله بن عمرو وقعد ابن عمر يبكي ، فقيل له : ما يبكيك فقال هذا (يعني عبد الله ابن عمرو) زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبْرٍ كبَّهُ الله تعالى في النارِ على وجهِهِ»[5] . وبسنده إلى إياس بن سلمة[6] ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يزالُ الرجلُ يذهبُ بنفسهِ حتَّى يُكتبَ من الجبَّارين حتى يصيبُهُ ما أصابهُمْ»[7] .

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ مِنْ كبرٍ ، فقال : الرجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ؟ قال : إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ ، الكبرُ بطرُ الحقِّ ،

---

(١) هو عبد الرحمن بن عوف الزهري ، قيل اسمه عبد الله ، وقيل اسماعيل د روى له الستة ، توفي سنة ٩٤ هـ «تقريب التهذيب ٢/٤٣٠»

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، الصحابي الجليل ، من النسَّاك ، أسلم قبل أبيه ، كان كثير العبادة ، حتى قال له النبي ﷺ : «إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزّوجك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً» توفي سنة ٦٥ هـ «الإصابة ٤٨٣٨» «الأعلام ٤/١١١» .

(٣) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(٤) جبل تجلة يُسعى منه وإليه في الحج .

(٥) انظر كنز العمال ٣/٥٣٤ برقم ٧٧٧٣ وفيه : الدار قطني في الأفراد .

(٦) هو إياس بن سلمة ، أحد الرواة ، ثقة ، توفي سنة ١١٩ هـ ، وهو ابن سبع وسبعين سنة له في الصحاح والسنن «تقريب التهذيب ١/٨٧» .

(٧) الترمذي في البر والصلة ، باب ما جاء في الكبر برقم ٢٠٠١ ، وقال : حديث حتى غريب .

وغمطُ الناسِ»[1] .

وفي إفراده من حديث الأغر عن أبي هريرة وأبي سعيد[2] ، قالا : قال رسول الله ﷺ : **«يقولُ الله عز وجل : العِزُّ إزاري ، والكِبْرُ رِدائي ، فمن نازعني فيهما عذَّبتُهُ»**[3] .

قال الخطابي : ومعنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختصَّ بهما ، لا يُشركه فيهما أحد ، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما ، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل وضرب الرداء والإزار ، مثلاً يقول (والله أعلم) : كما لا يشرك الإنسان في إزاره وردائه ، فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق .

قال : وقوله «لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ من كبرٍ» يُتأَلُّ على وجهين : أحدهما : أنه كبر الكفر ، والثاني : أن ينزع الكبر من قلوب أهله قبل دخولهم الجنة . وقوله : «وغمط الناس» أنه أزرى بهم ، واستخف بهم ، ويقال : غمط وغمص .

وبسنده إلى الحسن قال : تراهم يهدرون عنده هدير الفحل : أنت والله ، وتراه مقنعاً ساكتاً يحسب حُميق[4] أنه مثل ما يقال له . قال : وترى أحدهم يتخزل في مشيته يسحب عظامه عظماً عظماً لا يمشي طبيعة .

---

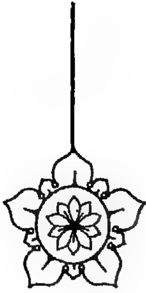
(١) مسلم في الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ٩١ ، وأبو دواد في الأدب ، باب ما جاء في الكبر برقم ٤٠٩١ ، والترمذي في البر والصلة ، باب ما جاء في الكبر ١٩٩٩ .

(٢) هو سعد بن مالك الأنصاري ، الصحابي الجليل المعروف ، له في الصحاح والسنن ، توفي سنة ٦٣ هـ «الإصابة ٢/٣٥» .

(٣) مسلم في البر والصلة ، باب تحريم الكبر برقم ٢٦٢٠ .

(٤) تصغير أحمق .

الباب الخامس عشر



في دفع العجب

العجُبُ : إنما ينشأ مِنْ حُبِّ النفس ، والمحبوب لا يرى زلته ، ولا يعتقد نقصه ، بل يرى بعين الكمال . ومن بلايا العجب أنه يؤدي إلى بغض الأمر الذي به وقع العجب ؛ لأن المعجب بنفسه في أمر لا يتزيد منه ثم يترقى إلى أن يعيب غيره في الاعتقاد والنقص في سواه .

وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس على ما بيَّنا آنفاً ، وسؤال الغير عن قبائحها ومعايبها ، والنظر في أحوال من سبقه إلى ما أعجب به وبرز عليه ، فإن عجب العالم بعلمه فلينظر في سير العلماء ، أو بزهده فلينظر في سير الزهاد ، فحينئذ لا يعد نفسه ، فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث ، وكان كهمس بن الحسن[1] ١٢/ظ يختم كل يوم وليلة ثلاث مرات ، وصلى سليمان التيمي[2] الفجر بوضوء العتمة أربعين سنة .

ومن تأمَّل سير القوم رأى نفسه فيما حصل بالإضافة إليهم كمن معه دينار يعجب به ، ولا يدري أن في الدنيا من يملك ألوفاً كثيرة . وبسنده قال إبراهيم

---

(١) هو كهمس بن الحسن ، أبو عبد الله ، الملقب بالدَّعَّاء ، كان ورعاً ، بكَّاءً ، زاهداً يؤثر الدين على الدنيا «حيلة الأولياء ٦/١١٢١١» .

(٢) أحد كبار الصالحين عُرف بكثرة عبادته وصلاحه .

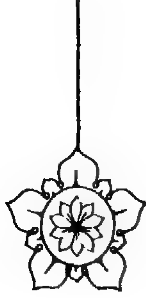
الخواص[1] : العجب يمنع من معرفة قدر النفس .

وقال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله ، وما أضر العجب بالمجلس .

---

(١) هو ابراهيم بن أحمد الخواص ، أبو اسحاق ، المتبتل ، المتوكل على الله تعالى ، له أقوال في المواعظ سائرة ، منها : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين ، ومنها : عقوبة القلب أشد العقوبات ، ومقامها أعلى المقامات «حلية الأولياء ١٠/٣٢٥ ـ ٣٣١»

الباب السادس عشر



في دفع الرياء

من عَرَفَ الله حقَّ معرفته أخلص له عمله ، وإنما يقع الرياء من قلة المعرفة له ، وتعظيم قدر الخلق ، وإيثار النفس مدحهم وحمدهم ، والناس في هذا المرض متفاوتون ، فمنهم من لا يقصد بعمله إلا مدح الخلق له ، ومنهم من يريد الله بعمله ويريد مدح المخلوقين ، ومنهم من لا يقصد الخلق أصلاً ، فإذا اطلعوا عليه حسَّن العمل وجوَّده ليُمدح ، فهذه آفة دخلت على عمل صحيح .

وعلاج هذا المرض في الجملة : تحقيق معرفة الله سبحانه ، فمن عرفه أفرد القصد له ، ولم يرَ غيره ، وأقام نفسه في مقام العابد الذليل للمعبود ، لا في مقام معبود ممدوح ، ورأى أن خصول الأجر إنما يكون بخالص العمل فاحترس من تعب ضائع .

والعقوبة على الرياء شديدة ، بسنده حديث عمر بن الخطاب : **«إنَّما الأعمال بالنيَّةِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»**[1] .

وبسنده إلى أبي موسى ، قال جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيتَ أن الرجل ، يقاتل شجاعة ، ويقاتلُ حمية ، ويقاتل رياءً . ١٣/و فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : **«مَنْ قاتلَ لِتكونَ كلمةُ الله هي العُليا فهو في سبيلِ الله»** متفق عليه[1] .

---

(١) البخاري في بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ، وفي الإيمان ، وسلم في الأمارة باب قوله ﷺ إنما الأعمال برقم ١٩٠٧

(٢) البخاري في العلم باب من سأل وهو قائم وفي الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وفي التوحيد ، ومسلم في الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة برقم ١٩٠٤ . والنسائي في الجهاد ، ومسند الإمام أحمد ٣٩٢/٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ .

وبسنده إلى أبي هريرة ، قال له ناتل[1] الشامي : أيها الشيخ حدثنا حديثا سمعته مِن رسول الله ﷺ ، فقال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «إنَّ أولَ الناسِ يُقضى فيه يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : رجلٌ استشهد فأتي به فعرّفه نِعَمَهُ فعرفَها ، فقال : ما عملتَ فيها ؟

قال : قاتلتُ فيك حتى قُتلتُ : قال : كذبتَ ، ولكنك قاتلتَ ليُقال : هو جريءٌ . فقد قيلَ .

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقيَ فقي النار .

ورجلٌ تعلَّمَ العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، فقال : ما علمتَ فيها ؟

قال : تعلَّمتُ فيكَ العلمِ ، وعلَّمتُهُ وقرأتُ القرآن .

فقال : كذبتَ ، ولكنك تعلَّمت ليُقال : هو عالمٌ ، وقرأتَ القرآن ليُقال : هو قارىءٌ . فقد قيل .

ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار .

ورجلٌ وسَّع الله عليه وأعطاهُ مِن أصنافِ المال كلِّهِ ، فأُتيَ به فعرفَّه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملتَ فيها ؟

فقال : ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك .

قال : كذبتَ ، ولكنك فعلتَ ليَقال : هو جواد ، فقد قيل .

ثم أُمر به فَسُحبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار» انفرد بإخراجه مسلم[2] .

وبسنده إلى أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل : قال : «أنا خيرُ الشُّركاء ، فمنْ عمِلَ عملاً فأشركَ فيه غيري ، فأنا بريءٌ منه ، وهوَ الذي أشركَ» أخرجه مسلم[3]

وبسنده إلى محمود بن لبيد : أن رسول الله ﷺ قال : إنَّ أخوفَ ما أخافُ

---

(١) هو ناتل بن قيس الحزاميّ الشامي من أهل فلسطين . هو تابعي ، كان أبوه صحابياً ، وكان ناتل كبير قومه .

(٢) مسلم في الإمارة باب رقم ١٥٢ الحديث رقم ١٩٠٥ .

(٣) مسلم في الزهد باب رقم ٤٦ ، ومسند أحمد ٣٠١/٢ ، ٤٣٥

عليكُم الشركَ الأصغُر» قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرِّياءُ ، يقولُ الله تعالى لهم يومَ القيامةِ إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذينَ كنتم تُراءُون في الدنيا فانظروا هَلْ عندَهُم جزاءً[1]

وبسنده إلى أبي حازم ، قال : لا يُحسِنُ عبد فيما بينه وبين العباد ولا يعوِّر[2] فيما بينه وبين الله إلا عوَّر الله ما بينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها ؛ إنك إن صانعتَ هذا الوجه مالت إليك الوجوه كلها ، وإذا أفسدتَ شنَّعك الوجوه كلها .

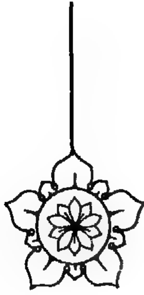
وبسنده إلى ابن توبة أبو جعفر عبد الله ، قال : رأيت أبا بكر الأدمى القارىء في النوم بعد موته يمدُّ يده ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : وقفني بين يديه ، وقاسيت شدائد وأموراً ما كان شيء أضر عليَّ منها لأنها كانت للدنيا ، فقلت : فإلى أيِّ شيءٍ انتهى أمرك ، قال : قال لي : تعالى آليت على نفسي أن لا أُعذب أبناء الثمانين .

---

(١) الترمذي في الحدود باب ٢٤ وفي الفتن باب ٥٩ وفي الزهد ٢٤ وابن ماجه في الحدود ، باب ١٢ ، وفي الزهد ، باب ١٢ ، وفي الزهد باب ٢١ ، ومسند أحمد ٢٢/١ . ش ٤٤ ، ٧/٣ ، ٣٠ ، ٣٨٢ ، ١٢٦/٤ ، ٤٢٨/٥ ، ٤٢٩ .

(٢) بعور يُسيء .

الباب السابع عشر



في دفع فضول الفكر

اعلم أن الفكر يُراد لاستدراك فارط ، والنظر في مصلحة مستقبلة ، فإذا كان فيما لا يثمرها كان ضرراً ، وإذا كثر أنهك البدن ، قال أبقراط[1] : ينبغي للعلماء أن يتركوا الفكر وقتاً ما لئلا يُنهك أبدانهم . ١٤/و

قلتُ : ولا يجوز للعاقل أن يُخلي نفسه من الفكر ، ولكن يكون فيما يتصور له نيله ، فأما إذا تفكر العامي في أن يكون خليفة ، وأن ينال علم أبي حنيفة[2] والشافعي[3] ، ثم يجمع بينه وبين زهد بشر[4] ومعروف الكرخي[5] ، ويحصل مثل مال عبد الرحمن بن عوف[6] ؛ فهذه أفكار تُضني وتردي ، خصوصاً إذا قنع

(١) حكيم يوناني عاش قبل الميلاد اشتهر بحكمته ، ومواعظه .
(٢) هو أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب المشهور أحد الأئمة الأربعة ، وإليه نسبه الحنفية له مؤلفات مطبوعة توفي سنة ١٥٠ هـ
(٣) هو الإمام محمد بن ادريس ، أحد الأئمة الأربعة ، إليه نسبة الشافعية ، ولد بغزة بفلسطين ، له مؤلفات كثيرة مطبوعة ، توفي سنة ٢٠٤ هـ «تاريخ بغداد ٥٦/٢»
(٤) هو بشرين الحارث بن علي المروزي ، أبو نصر ، المعروف بالحافي ، من كبار الصالحين ، له في الورع والزهد أخبار ، وهو من الثقات ، سكن بغداد وتوفي فيها سنة ٢٢٧ هـ وفيات الأعيان ٩٠/١» «حلية الأولياء ٣٣٦/٨» .
(٥) هو معروف بن فيروز الكرخي ، أحد أعلام الزهاد والعبّاد ، اشتهر بصلاحه ، وكان يقصده الإمام أحمد بن حنبل ، وللمؤلف ابن الجوزي كتاباً في أخباره وآدابه . توفي سنة ٢٠٠ هـ «وفيات الأعيان ١٠٤/٢» «الأعلام ٢٦٩/٧» .
(٦) الصحابي المعروف بكثرة ماله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة .

بالفكر ، واستعمل الكسل عن الطلب . وإنما ينبغي أن يتفكر فيما تصل إليه قدمه ، ويطمع لمثله فيه من الخير ، ويتفكر في جهاده للطبع في دفع الشر ، فقد تفكر خلق كثير من العصاة في عواقبهم فتابوا ، وكثير من الملوك في غرور الدنيا فتزهَّدوا .

قال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكُّر خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساه . وبسنده إلى أم الدرداء[1] ، قيل لها : ماكان أفضل عمل أبي الدرداء ؟ قالت : التفكر والاعتبار .

ووقف مالك بن دينار[2] ليلة في داره على قدمه إلى الفجر ، فقال : ما زال أهل النار يعرضون عليَّ بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح .

وقال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجاب[3] العمى .

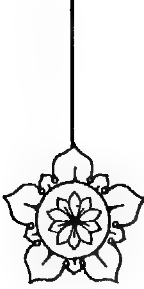
---

(١) هي زوجة أبي الدرداء ، وقد سبقت ترجمته . انظر فهرس الأعلام .

(٢) هو مالك بن دينار البصري ، من رواة الحديث ، كان ورعاً ، يأكل من كسبه ، توفي في البصرة سنة ١٣١ هـ «حلية الأولياء ٣٥٧/٢» «الأعلام ٢٦١/٥»

(٣) ينزاح .

الباب الثامن عشر



في دفع فضول الحزن

اعلم أن العاقل لا يخلو من الحزن ؛ لأنه يتفكر في سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه ، وفيما قال العلماء والصالحون فيحزنِ لِفَوْته .

بسنده إلى مالك بن دينار قال : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن البيت إذا لم يسكن خرب .

وبسنده إلى ابراهيم بن عيسى(1)، قال : ما رأيت أطول حزناً من الحسن ، وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة .

وبسنده إلى مالك بن دينار قال : بقدر ما تحزن ١٤/ظ للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك .

وإذا قد تبين أن الحزن لا يزال ملازماً قلوب المتقين فينبغي أنْ يتقيٌ إفراطه ؛ لأن الحزن إنما يكون على الفائت ، وقد عرفنا طريق الاستدراك .

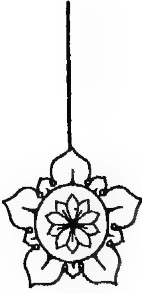
وجاء في الحديث : بقيةُ عمرِ المؤمنِ لا قيمةَ لَهُ يستدركُ فيه ما فات»فإن كان المحزن عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن . وإن كان ديناً فينبغي أن يقاومه برجاء الفضل والرحمة ليعتدل الحال . فأما إذا كان الحزن لأجل الدنيا وما فات منها فذلك الخسران المبين ، فليدفعه العاقل عن نفسه . وأقوى علاجه أن يعلم أنه

---

(1) هو ابراهيم بن عيسى الزاهد ، صحب معروف الكرخي . وسمع من أبي داود الطيالسي . من كلامه : المؤمن حسن الظن بالله ، واثق بوعده ، اتخذ التقوى رقيباً ، والقرآن دليلاً ، والخوف محجة ، والصلاة كنزاً «حلية الأولياء ١٠/٣٩٣» .

لا يرد فائتاً ، وإنما يضم إلى المصيبة فتصير اثنتين ، والمصيبة ينبغي أن تخفف عن القلب ، وتدفع ، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلاً ، قال ابن عمر : إذا استأثر الله بشيءٍ فالْهَ عنه ثم في الخلف عن الفائت ما يسلي ، فإن عدم ما يسلي اجتهد في صرف ذلك عن قلبه ، وليعلم أن الداعي إلى الحزن الهوى لا العقل ؛ لأن العقل لا يدعو إلى ما لا ينفع ، وليعلم أنه سيسلو بعد حين فليجتهد العلم بأنه لا يفيد ، والإيمان بالثواب ، ويذكر من أصابه أكثر من مصيبته .

الباب التاسع عشر



في دفع فضول الغم والهم

الغم يكون للماضي ١٥/و ، والهم : للمستقبل ، فمن اغتم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه ؛ لأنه يُثاب عليه . ومن اهتم بعمل خير نفعته همته . فأما إذا اغتم لمفقود من الدنيا ، فالمفقود لا يرجع والغم يؤذي ، فكأنه أضاف إلى الأذى أذى ، كما قلنا في الحزن .

وينبغي للحازم أن يحترْز مما يجلب الغم ، وجالبه فقد المحبوب ؛ فمن كثرت محبوباته كثر غمه ، ومن قلَّلها قلّ غمه .

فإن قال قائل : إذا لم أجد محبوباً اغتممت ؛ قيل له : صدقتَ ، ولكن لا يبلغ غمّك بالعدم معشار عشر غم من فقد المحبوب ، ألا ترى أن من لا ولد له يغتم ، ولكن لا كغم من أصيب بولده .

ثم أن الإنسان كلما طال ألَفه لما يحبه واستمتاعه به تمكن من قلبه ، فإذا فقده أحس من مرِ التألم في لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم . وهذا لأن المحبوب ملائم للنفس كالصحة ، فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها وفقدها مناف لها ، ولذلك تألم بالفقد مالا تفرح بالموجود ؛ لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها ، فينبغي للعاقل تقليل الألفة ؛ فإن اضطر إلى جوالب الغم ، فأثمرت الغم ، فعلاجه في الأول الإيمان بالقدر ، وأنه لا بد مما قضى ، ثم يعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر ، فالبناء إلى النقض ، والجمع إلى التفرق ، ومن رام بقاء مالا يبقى كان كمن رام وجود مالا يوجد ، فلا ينبغي أن يطلب من الدنيا ما لم توضع عليه كما قال الشاعر :

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تُريدها ... صَفواً من الإيذاء والأكدارِ ١٥/ظ

ثم يتصوَّرُ ما نزل به مضاعفاً فيهونُ عليه حينئذ ما هو فيه ، ومن عادة الحمال الحازم أن يترك فوق حمله شيئاً ثقيلاً ، ثم يمشي خطوات ثم يولي به فيخف الأمر عنه ، ثم ليرتقب زمن العافية هجوم البلاء ، فإذا هجم ما يكرهه .

وليتمثل كلما يتصور نزوله نازلاً ، فإذا نزل بعض ذلك كان ما لم ينزل ربحاً ، مثل أن يتصور أن يؤخذ ماله كله ؛ فإذا أخذ البعض عُدَّ الباقي غنيمة .

ويتصور أن يعمى ، فإذا رمد سهل الأمر ، وكذلك جميع المضرات ، قال الشاعر :

يُمثِّل ذو اللب[1] في نفسه	مصائبَهُ قبلَ أنْ تنزلا
فإنْ نزلتْ بغتةً لم ترعْهُ[2]	لما كانَ في نفسِهِ مِثْلَا
وذو الجْهلِ يأمَنْ أيّامَهُ	وينسى مصارِع مَنْ قدْ خلا
فإنْ بدَهتْهُ صروفُ الزمانِ	ببعضِ مصائبِهِ أعولا[3]
ولو قدَّمَ الحزمَ في أمرِهِ	لعلمِهِ الصَّبرِ حسنَ البلا

قال بعض السلف : رأيت امرأة فتعجبت من نضارتها ، فقلت : هذا وجهٌ ما طرقه حزن ، فقالت : لا تقل هذا فما يعرف من ناله ما نالني ، كان لي زوج فاشترى أضحية ، فذبحها وله ولدان ، فقال الأكبر للأصغر : تعال حتى أريك كيف ذبح أبي الشاة فذبحه ، فلما طلبناه هرب فخرج الأب في طلبه فهلكا ، فقلت : وكيف حزنك ؟ قالت : لو وجدت في الحزن دركاً لاستعملته .

فصل (الهم والحزن من غلبة السوداء)

وقد يقع الحزن والغم في غلبة السوداءِ ١٦/ فيعالج بما يزيل السّوداء بالمفرِحات . والغم يجمد الدم ، والسرور يُلهب الدم ، حتى تعلو حرارته الغريزية ، وجميعاً يضران وربما قتلا إن لم تعجل تفتيرهما .

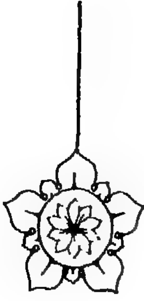
---

(١) اللب : العقل .

(٢) ترعه : ترعبه .

(٣) أعولا : من العويل وهو البكاء الشديد مع الصراخ .

الباب العشــرون



في دفع فضول الخوف والحذر من الموت

الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعدّ للخوف عدّته قبل وقوعه ، ونفى فضول الخوف مما لا بد منه ، إذ لا ينفعه خوفه منه .

وقد اشتد الخوف من الله تعالى بكثير من الصالحين ، حتى سألوا الله تعالى تقليل ذلك . والسبب في سؤالهم أن الخوف كالسوط فإذا ألحَّ بالسوط على الناقة قلقت . وإنما ندب به المتواني ، بسنده إلى سفيان الثوري[1] ، قال لشاب يجالسه : أتحبّ أن تخشى الله حق خشيته ؟ قال : نعم ، قال : أنت أحمق ، لو خشيته حق خشيته ما أدَّيت الفرائض .

فصل

(لاينبغي للعاقل الافراط في الخوف)

ولا ينبغي للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض ، فإنه نازل لا بد وخوف مالا بد أن يأتي زيادة أذى .

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أمير المؤمنين في الحديث ، له مؤلفات في الحديث ، وكان آية في الحفظ والتقوى ، توفي سنة ١٦١ هـ «حلية الأولياء ٦/٣٥٦» «الأعلام ٣/١٠٥» .

فأما الخوف من الموت والفكر فيه ، فإنه لا سبيل إلى دفعه عن النفس ، وإنما يخفف الأمر العلم أنه لا بد منه ، فلا يفيد الحذر إلا زيادة على المحذور . وكلما تصوّرت شدته كانت كل تصويره موتاً . فليصرف الإنسان فكره عن تصور الموت ليكون ميتاً مرة لا مرات ويكون صرف الفكر ربحاً .

وليعلم أن الله تعالى قادر على تهوينه إذا شاء ، وليوقن بأن ما بعده أخوف منه ، ١٦/ظ لأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة ، وإنما ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر الموت ليعمل له لا لنفس تصويره وتمثيله ، فإن خطر على القلب الحزن على فراق الدنيا ، فعلاج ذلك أن يعلم أنها ليست بدار لذة ، وإنما لذاتها راحة من مؤلم . ومثل هذا لا ينافس فيه ؛ فإن حزن العاقل على فراق الدنيا لفوت العمل الصالح ، فقد كان السلف يحزنون لذلك .

قال معاذ بن جبل عند موته : اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر[1] ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

---

(١) الهواجر : جمع هاجرة ، وهي نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر . لأن الناس يستكِنّون في بيوتهم ، كأنهم قد تهاجروا من شدة الحر .

فصل

(في من نزل به الموت)

ومن نزل به الموت : فليعلم أنها ساعة تحتاج إلى معاناة صعبة ؛ لأن صورتها ألم محض ، وفراق المحبوبات ، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات ، والخوف من المآل .

ويأتي الشيطان فيُسخط العبد على ربه ويقول : انظر في أي شيء ألقاك ، وما الذي قضى عليك ، وكيف يؤلمك ؟ وها أنت تفارق ولدك وأهلك وتُلقى بين أطباق الثرى !

فربما أسخطه عَلى ربه ، وكره قضاء الله تعالى إليه ، وأنطقه بكلام يتضمن نوع اعتراض ، وربما حسَّن إليه الجور في الوصية ، وأن يزوي لبعض الورثة ، إلى غير ذلك من المحن . فتعين حينئذٍ الحاجة إلى معالجة إبليس ومعالجة النفس .

وقد نقل ١٧/ أبو داور من حديث أبي اليسر[1] ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول : **أعوذُ بكَ أنْ يتخبَّطني[2] الشيطانُ عند الموتِ»**[3].

وفي تلك الساعة يقول الشيطان لأعوانه : إن فاتكم الآن لم تقدروا عليه أبداً .

---

(١) هو الصحابي الجليل كعب بن عمرو ، أبو اليَسَر ، السَلَمي ، الأنصاري البدري ، توفي بالمدينة سنة ٥٥ هـ «تقريب التهذيب ٢/١٣٥»

(٢) تخبَّطه الشيطان : إذا صرعه ولعب به ، والخبط باليدين كالرمح بالرجلين .

(٣) أبو داود في الصلاة ، باب الاستعاذة برقم ١٥٥٢ ، والنسائي في الاستعاذة ، باب الاستعاذة من التردي .

فأما العلاج لتلك الشدائد ، فينبغي أن نذكر قبله مقدمة ، وهو أن من حفظ الله في صحته حفظه الله في مرضه ، ومن راقب الله في خطراته حرسه الله عند حركات جوارحه .

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : «**احفظِ الله يحفظْكَ ، احفظِ الله تجدْهُ أمامكَ ، تعرَّف إلى الله في الرضا يعرفُكَ في الشِّدَّةِ**»[1] .

ثم قد سمعت قصة يونس عليه السلام لما كانت له أعمال خير متقدمة انتاشته من شدته ، فقال تعالى : ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كانَ مِنَ المسبِّحينَ . لَلَبِثَ في بطِنِهِ إلى يَومِ يُبْعَثُونَ**﴾[2] .

ولما لم يكن لفرعون عمل خير لم يجد وقت الشدة متعلقاً فقيل له : ﴿**الآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ منَ المُفْسِدينَ**﴾[3] .

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند الموت ؛ سيِّدي لهذه الساعة خَبَّأْتُكَ فأما من ضيَّع في صحته ، فإنه يُضيَّعُ في مرضه .

كما نقل عن بعض الصحابة أنه رأى شيخاً يطلب من الناس ، فقال : هذا ضيَّع أمر الله في صغره ، فضيَّعه الله في كبره .

فأما نفس العلاج فينبغي أن تشجع النفس ، وتقول لها : إنما هي ساعة . ثم أرجو كمال الراحة ، كما قال عليه السلام : «**لا كَرْبَ على أبيك بعدَ اليومِ**»[4] .

ودُعي ١٧/ظ أبو بكر بن عياش[5] عند الموت إلى الرجاء ، فقال : كيف لا أرجوه ، وقد صمتُ له ثمانين رمضان .

وقال المعتمر بن سليمان[6] : قال لي أبي : يا بنيّ اقرأ عليّ أحاديث الرخص

---

(١) الترمذي في صفة القيامة باب رقم : ٦٠ برقم ٢٥١٨ ، وقال حديث حسن صحيح .

(٢) سورة الصافات ، الآية ١٤٤

(٣) سورة يونس ، الآية ٩١

(٤) رواه ابن ماجة في الجنائز باب : ٦٥ برقم ١٦٢٩

(٥) هو ابو بكر بن عياش الأسدي الحناط ، من الرواة ، ثقة ، توفي سنة ١٩٤ هـ «تقريب التهذيب ٢/٣٩٩ .

(٦) هو المعتمر بن سليمان التيمي ، أبو محمد البصري ، ثقة ، من كبار المحدثين ، توفي سنة =

لعلّي ألقى الله وأنا حسنُ الظن به .

فينبغي للمؤمن أن يرمي صوت الخوف ، ويحدو الناقة ، كما قال حادي البادية :

بشّرها دليلُها وقالَ غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والجبال

بسنده إلى أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**قال الله عزَّ وجلَّ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي**»متفق عليه[1] .

ويسنده إلى جابر ، قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول : «**لا يموتُ أحدُكُم إلا وهو يُحسن بالله الظَّنَ**» أخرجه مسلم[2] .

وقال الفضيل بن عياض[3] : الخوفُ أفضل من الرجاء ، فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل .

قلت : وهذا صحيح لما بينا من أنَّ الخوف سوط يساق به المتواني ، فإذا كَلَّ البعير لم يبقَ إلا الرفق ، فإن قيل : فما تقول في خوف عمر بن عبد العزيز عند الموت ؟ فالجواب : أنه لما تعلّقت به حقوق الرعية خاف من مطالب طبعه مبني على الشح كان يقول : إنما أخاف ولايتكم هذه ، على أنه قد كان يتمسَّك بأذيال الرجال ، فإن ابن عباس لما قال له : أبشر يا أمير المؤمنين وُلِّيت فَعَدَلْت ثم شهادة ، فقال : أتشهد لي بهذا عند الله يا ابن عباس[4] .

= ٢٨٧ هـ وقد جاوز الثمانين .

(١) البخاري في التوحيد ، باب ذكر النبي ﷺ ، ومسلم في الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى برقم ٢٦٧٥ ، الترمذي في الدعوات ، باب حسن الظن با لله برقم ٣٥٩٨ .

(٢) مسلم في صفة الجنة برقم ٢٨٧٧ ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، أبو داوود في الجنائز برقم ٣١١٣ ، باب ما يستحب من الظن بالله تعالى عند الموت .

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، أبو علي ، شيخ الحرم المكي ، من أكابر الصلحاء ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه الامام الشافعي ، من كلامه «من عرف الناس استراح» توفي سنة ١٨٧ هـ «حلية الأولياء ٨/٨٤» الأعلام ١٥٣/٥»

(٤) مسند الإمام أحمد ٤٦/١

فصل

(اشتداد المصيبة والأجر عليها)

فإن اشتد بالمريض كرب ، فليحسب ذاك في باب الأجر ١٨/و ، فقد كانوا يستحبون للمريض شدة النزع ليكفر ذلك عنه الذنوب .

بسنده إلى ابراهيم ، قال : كانَوا يستحبون أن يجهدوا عند الموت .

وذكر بسنده عن عمر بن عبد العزيز قال : ما يحب أن تهون علي سكرات الموت أنه آخر ما يكفر به عن المرء المسلم .

فصل

(التوبة من كل ذنب)

وينبغي للمريض ما دام ثابت العقل أن يتوب ليلقى الله طاهراً من كل ذنب ، وأن يجرِّد وصيته ، وأن يسلم أهله وولده إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فإنه يتولى الصالحين .

فصل

(الموت واقع لا محالة)

فإن أزعجه الشيطان بذكر البلى ، فليعلم أنِ البلى واقع على المركب ، والراكب قد رحل ، وليعلم أن الشريعة قد مضت بوصول المؤمن بعد الموت إلى النعيم الدائم ، فمن حق الإيمان لم يحزن ؛ لأن مآل المؤمن إلى الخير . ومن لم يتحقق الإيمان فليحزن لفقد التحقيق .

وبسنده إلى كعب ، عن النبي ﷺ قال : «نَسمةُ المسلم طيرٌ تُعلق في شجر

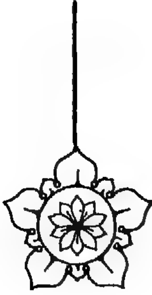
الجنة حتى يُرجعها الله إلى جسدِهِ»[1] .

ومقصودنا من هذا الباب أن يكون الخوف من الموت بمقدار ؛ لئلا ينهك البدن ، ويبالغ في الأذى ، وأن يخاف لما بعد الموت فيعمل له .

---

(١) عن ام هانىء الانصارية ، انظر كنز العمال ١٥/٦٨٧ برقم ٤٢٧٥٣ لفظ وبرقم ٤٢٧٥٤

الباب الحادي والعشرون



في دفع فضول الفرح

إذا اشتد الفرحُ التهب الدم ، وذلك يضر ، وربما قتل إن لم يعدل ، وينبغي للإنسان إذا رأى أسباب الفرح أن يدرج نفسه إليه . فإن يوسف عليه السلام لما التقى بأخيه سأله : هل لك من أب ١٨/ظ ؟ ولم يزل يلاطفه لئلا يفاجأه بالسبب المفرح .

والفرح ينبغي أن يكون بمقدار ليعدل الحزن ، فأما إذا أفرط ، فإنه دليل على الغفلَةَ القوية إذ لا وجه للفرح عند العاقل ، فإنما يفرح بالطبع لما يفرح ، ثم يذكر مصيره وخوف مآله، فينمحي ذلك الفرح ، ومتى قويت غفلة الفرح حملت إلى الأَشِرين الذين خرجوا بالفرح إلى البطر.

وعلاج شدة الفرح بالفكر فيما قد سلف من الذنوب وفيما بين يدي العبد من الشدائد .

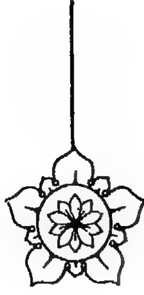
وقد قال الحسن البصري : فضح الموت الدنيا ؛ فلم يترك لذي لبٍّ فرحاً[٢] .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٦

(٢) انظر كتاب الزهد للامام أحمد بن حنبل ص ٣١٦

الباب الثاني والعشرون



في دفع الكسل

الموجب للكسل حبُّ الراحة ، وإيثار البطالة ، وصعوبة المشاق . وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك : أنَّ النبي ﷺ كان يُكثر أن يقول : «اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الهمِّ والحزن والعجزِ والكَسَلِ»[1].

وفي أفراد مسلم من أفراد أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله منَ المؤمنِ الضعيفِ ، وفي كُلٍّ خيرٌ احرصْ على ما ينفعك ، واستعِنْ بالله ، ولا تعجزْ ؛ فإن أصابَكَ شيءٌ فلا تقلْ : لو أني فعلتُ كذا كانَ كذا وكذا ١٩/و . ولكنْ قُلْ : قَدَّرَ الله وما شاءَ فعلَ ؛ فإنَّ (لَوْ) تفتح عَمَلَ الشيطانِ»[2].

وقال ابن مسعود : إني لأبغض الرجل أراهُ فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة .

وقال : يكون في آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم ، يسمون

---

(١) البخاري في الدعوات ، باب العوذ من فتنة المحيا والمهات ، وباب الاستعاذة من الجبن والكسل وباب التعوذ من أرذل العمر ، وفي الجهاد باب ما يتعوذ من الجبن ، ومسلم في الذكر والدعاء ، باب التعوذ من العجز والكسل ٢٧٠٦ والترمذي في الدعوات ، باب الاستعاذة من الهمة والدين ٣٤٨٠ ، ٣٤٨١ ، وأبو داوود في الصلاة باب الاستعاذة ١٥٤٠ ، ١٥٤١ والنسائي في الاستعاذة ، باب الاستعاذة من البخل ومن الهم ومن الحزن .

(٢) مسلم في القدر ، رقم ٢٦٦٤ ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز .

الأتيان .

وقال ابن عباس : تزوَّجُ التواني بالكسل ، فولد بينهما الفقر .

وقال مالك بن دينار : ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع .

قال سفيان الثوري : مضى القوم على الخيل العتاق وبقينا على حمر دبرة .

فصل (علاج الكسل)

وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع في عقاب اللوم ، أو بالحصول في بيد التأسف ؛ فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب .

وليفكر العاقل في سوء مغبة الكسل ، فربَّ راحة أوْجبت حسرات وندماً .

ومن رأى جاره قد سافر ، ثم عاد بالأرباح ، زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافاً . وكذلك إذا برع أحد الرفيقين في العلم ، وتكاسل الآخر .

والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل .

وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لاتدرك بالراحة ، فمن تلمَّح ثمرة الكسل اجتنبه ، ومن مدّ فطنته إلى ثمرات الجد نسي مشاق الطريق .

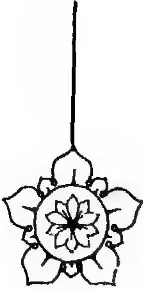
ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثاً ، وإنما هو في الدينا كالأجير أو كالتاجر .

ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء ١٩ / في القبر كلحظة ، ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدي إما في الجنة وإما في النار ليس بشيء .

ومن أنفع العلاج النظر في سير المجتهدين ، فالعجب من مؤثر البطالة في موسم الأرباح ، وتارك الاستلاب وقت النثار .

بسنده إلى فرقد ، قال : إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ، ألم تَروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه ، فإذا فرغ اغتسل وليس ثوبين نقيين ، وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل .

الباب الثالث والعشرون



في تعريف الرجل عيوب نفسه

أعلم ان :

النفس محبوبة ، وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب ، وفي الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس ، فيُنزِلها منزلة العدو في المخالفة ، فيظهر له عيوبها .

قال : إياس بن معاوية [1] : من لم يعرفْ عيب نفسه فهو أحمق ، فقيل له : فما عيبك ؟ قال : كثرة الكلام . وهذا أمر نادر ، والعمل على الغالب ، فإن أن يخفي الإنسان عيوب نفسه ، ولسنا نريد أنه لا يعرف عيباً ، فإن العاقل إذا أتى عيباً عرفه ، وإنما غرضنا العيوب الباطنة ، فإنها كالأمراض الباطنة التي لا يعلم بها الطبيب ، فيصف لها دواء ، ولا عليها إمارة ، ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفي عيباً كما قال الشاعر :

وَعَينُ الرضا عنْ كلِّ عيبٍ كليلةٍ ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدي المساويا

وقد روي أن رجلاً صحب رجلاً ، فلما أراد أن يفارقه ، قال له : أخبرني عن ٢٠/و عيوبي ، فقال : سل غيري ، فإني كنت أراكِ بعين الرضا .

فإن قيل : فإذا كانت العيوب باطنةً والإنسان لا يراها عيوباً ، فكيف

---

(١) هو إياس بن معاوية بن قرة المزني ، قاضي البصرة ، أحد أعاجيب في الفطنة والذكاء ، كان صادق الحدس مُلهماً وجيهاً ، توفي سنة ١٢٢ هـ «وفيات الأعيان ١/٨١» «حلية الأولياء ١٢٣/٣» «الأعلام ٢/٣٣» .

الطريق إلى تعرُّفها ؟ فالجواب أن لذلك سبع طرق :

الطريق الأول : أن يتخيَّر صديقاً من أعقل مخالطيه ، ويسأله إبانة ما يرى من قبيحه ، ويعرفه أن ذلك منة منه عليه ، فإذا أخبره ابتهج بما سمع منه ، ولم يظهر له الحزن على ذلك ؛ لئلا يقصر في شرح الأمور ، ويقول له :

متى كتمتني شيئاً عددتك غاشاً .

والطريق الثاني : أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه وإخوانه ومعاملوه ، وبماذا يمدحونه أو يذمونه .

والطريق الثالث : أن يتطلع إلى ما يقول فيه الأعداء ، فإن العدو بَحاث عن العيوب . ومن هذا الوجه ينتفع الإنسان بعدوه مالا ينتفع بصديقه ؛ لأن العدو يذكر النقص ، والصديق يستر الخلل ، فإذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصه اجتنبه .

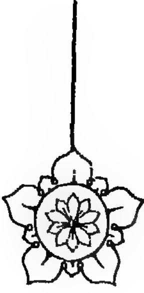
والطريق الرابع : أن يصور أفعاله في غيره ، ثم يستعمل منها ما يستحسن ، ويترك ما يستقبح .

والطريق الخامس : أن يعمل فكره في عواقب خلاله وثمراتها ، فيرى عيب العيب ، وحسن الحسن ، فإن الفكر الصادق نافذ .

والطريق السادس : أن يعرض أعماله على محكّ الشرع ، ويريها نافذ العقل ، ويضعها في موازين العدل ، فإنه يرى الأرجح والأدون .

والطريق السابع : أن ينظر في سير العاملين ، ثم يقيس أفعاله بأفعالهم ، فيرى حينئذ أن آثار النقص عيب فيجتنبه ، فضلاً عن فعل القبيح .

الباب الرابع والعشرون



في تنبيه الهمة الدنية

إذا كانت الهمة الدنية طبعاً لم ينجع فيها العلاج ، فإن كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء ، أو لغلبة الطبع والهوى ، فعلاجها قريب .

وذلك ٢٠/ظ من وجوه ، منها : مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ، ومواصلة أرباب الهمم العالية . ثم التفكر بالعواقب ، ومآل الدناءة ، ومصير أولي الجد والاجتهاد ، كما قال عبد الصمد [1] : مات رجل من السعاة ، وقد بقي له شرط ، والناس يقولون له : مت اليوم تحيى أبداً . فانتبهت بها .

ومن تفكَّر في المرتفعين في الهمم علم أنهم كهو من حيث الأصلية والآدمية ، غير أنَّ حُبَّ البطالة والراحة جنيا عليه فأوثقاه ، فساروا وهو قاعد ، ولو حرَّك قدم العزم لوصل ، قال الشاعر :

إذا أَعْجبتْـكَ خصالُ امـرىءٍ ... فكنْـهُ تكنْ مثلَ مـا أعجبَـكْ
فليسَ عـلى الجـودِ والمكـرُمـاتِ ... إذا جئتَهـا حـاجبـاً يحجُبَـكْ

ومن نظر في أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء ، وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالي ومن الضعفاء وأهل الحِرَفِ الدنية ، إلا أن الهمم أثرت فأثارت عن موطن .

ولو تفكر أرباب الهمم الدنية في عواقبها ، وما يجيء عليهم لرأوا البطالة

---

(١) هو عبد الصمد الزاهد .

عدواً ، وإنما صحبوا دناءة الهمة تعجلاً للراحة ، وما يلقونه من الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس والإهانة بهم أعظم من كل كرب وشدة .

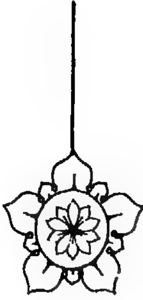
وما يناله أرباب التعب من الراحة في تعظيم الخلق لهم وارتفاع قدرهم في الدنيا قبل الآخرة يُنسي مرارة كل نصب . فكأنه ٢١/ من استراخ ، ولا استراح من تعب .

بسنده إلى أنس قال: قال رسول الله ﷺ : **«يُؤتى بأنعمِ أهلِ الدنيا من أهلِ النار ، فيصبغُ في النارِ صبغة ، ثُمَّ يُقال له : يا ابن آدم ، هل رأيتَ خيراً قط ؟ هل مرَّ بكَ نعيمٌ قط ؟ فيقول : لا والله ياربِّ . ويؤتى بأشدِّ الناسِ بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغُ في الجنة صبغة ، ثم يُقال له : يا ابن آدم هل رأيتَ بُؤساً قط ؟ هل مَرَّتْ بكَ شدةٌ قط ؟ فيقول : لا والله ياربِّ ما مرَّ بي بؤسٌ قطّ ، ولا رأيتُ شدةً قط»**[1] .

وبيان هذا أن التعب ينقضي ، وتبقى الراحة ، والراحة تذهب ، وتبقى الحسرة ، والمقام موسم ، والفوات معترض ، والاستلاب عاجل ، وفي بعض هذا إزعاج معترض ، والاستلاب عاجل ، وفي بعض هذا إزعاج للمتواني .

(١) مسلم في المنافقين ، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار برقم ٢٨٠٧ ، ويصبغ : أي يغمس في النار أو في الجنة كأنه يدخل اليها إدخالة واحدة .

الباب الخامس والعشرون



في رياضة النفس وتهذيبها

الأصل في الأمزجة الصحة ، والعلل طارئة ، وكل مولود يولد على الفطرة . ويوضح ما قلناه أن الرياضة لا تصلح إلا في نجيب ، والكودن لا تنفعه الرياضة ، والسبع وإن رُبي صغيراً لا يترك الافتراس إذا كبر . وقد عرفت تلك الحكاية : (فَمَنْ انبأكَ أنَّ أباكَ ذئب) وأعلم أن في الإنسان قوى ثلاثة : قوة ناطقة ، وقوة شهوانية ، وقوة غضبية ، فينبغي لمن شرَّفه الله تعالى بحب العلم أن يعتني بتكميل النفس الناطقة التي فضَّل الله تعالى بها على سائر الحيوانات ، وشارك بها الملائكة ، فيجعلها هي المسلَّطة على القوتين الأخريين ، أعني الشهوانية والغضبية ، لتكون منزلتها في البدن بمنزلة الراكب للفرس ، فإن الفارس ينبغي أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه ، فيمضي بها أين يشاء ، ويعقّها إذا شاء . فكذلك ينبغي أن تكون القوة الناطقة هي ٢١/ظ المستعلية على باقي القوى ، تستعملها كما تحب ، وتكفّها حين تحب .

ومن كان كذلك استحق أن يسمى إنساناً حقيقة ، قال أفلاطون [1] : الإنسان بالحقيقة مَنْ كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس ؛ لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان الى طبع البهيمية ، ومن سيب هواه في مرعاه ، وجعل حبله على غاربه ، فقد خرج عن مركزه ، فصار أخس من البهائم ؛ لأن تلك تمضي بطباعها . وهذا قد خالف طبعه . ومتى أفرطت القوة الغضبية خرج الإنسان إلى

---

(١) الفيلسوف اليوناني المشهور ، صاحب نظرية المثل ، والذي تأسى به الكثير من فلاسفة العرب . انظر كتابي «القواسم المشتركة بين افلاطون وابن عربي مروراً بابن سينا والفارابي»

أخلاق السباع والضواري . فينبغي أن يروِّض نفسه بمخالفة الشهوانية ، ويكسر الغضبية ، ويتبع القوة الناطقة ؛ حتى يتشبه بالملائكة ، ويتحرر من عبودية الشهوة والغضب .

فصل

(رياضة النفس بالتلطف)

واعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطُّف ، والتنقل من حال إلى حال ، ولا ينبغي أن يؤخذ أولاً بالعنف ، ولكن بالتلطف ، ثم يمزج الرغبة والرهبة .

ويعين على الرياضة صحبة الأخيار ، والبعد عن الأشرار ، ودراسة القرآن ، والأخبار ، وإجالة الفكر في الجنة والنار ، ومطالعة سير الحكماء والزهاد .

وقد كان بعض السلف يشتهي الحلواء فيعدها لنفسه ، فإذا صلى بالليل أطعمها .

وكان الثوري [1] يأكل مايشتهي ، ثم يقوم الى الصباح ، ويقول : أطعم الزنجي ولده . وما زال المحققون يلطفون بنفوسهم إلى أن ملكوها فقهروها .

وقال بعض جيران مالك بن دينار : سمعته ليلة يقول لنفسه : هكذا فكوني ، فلما أصبحتُ قلتُ له : ما معك في الدار أحد فلِمَنْ قلتَ ؟ قال : إن نفسي طلبت مني ٢٢/ أدماً [2] وألحت ، فمنعتها الطعام ثلاثة أيام ، فلما كانت الليلة وقد انقضت الأيام وجدت كسرة يابسة ، فبادرت إليها ، فقلت : قفي آتيك بخبز لينٍّ ، فقالت : قنعتُ بهذه . قلت : هكذا فكوني .

واعلم أنه إذا علمتْ منك النفس الجد جدَّتْ وإذا عرفتْ منك التكاسل

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) ما يؤكل مع الخبز .

طمِعتْ فيك ، كما قال الشاعر :

ويعـرفُ أخلاقَ الجـوادِ جـوادُهُ   فيجهـدُهُ كـرّاً ويـرهِقُـهُ ذعـراً

ومن الرياضة لها محاسبتها على كل فعل وقول ، ومحاسبتها في كل تقصير وذنب ، فإذا تمت رياضتها حمدت ما ذمت من تعبها ، قال ثابت البناني[1]: كابدتُ الليل عشرين سنة ، وتنعَّمتُ به عشرين سنة .

وقال أبو يزيد[2] : ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي حتى سقتها وهي تضحك . وفي هذا المعنى قول الشاعر :

مـازلـتُ أبـكـي كـلَّما نـظرتُ   إلى أن اختضبتْ أجفانُها بدمي

وبعد هذا فلا ينبغي أن ينسى حقها ، فإنَّ من حقها إعطاءها حظوظها التي لا تقدح في مقصود الرياضة ، فإنها إذا منعت مقاصدها في الجملة عمي القلب ، وتشتت الهمُّ ، وتكلَّف التعبُّد .

واعلم أن قدر النفس عند الله سبحانه أعظم من قدر العبادات . ولهذا أباح الفطر للمسافر ، وإنما يعقِلُ هذا العلماء .

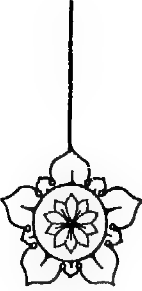
---

(١) هو ثابت ابن أسلم البناني ، أبو محمد ، قال عنه أنس بن مالك ، إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتاً مفتاح من مفاتيح الخير ، كان أعبدَ أهل زمانه ، كان يقوم الليل خمسين سنة ، فإذا كان السَحَر قال في دعائه : اللهم إن كنت أعطيتَ أحداً من خلقك الصلاة في قبره ، فأعطنيها «حلية الأولياء ٢/٣١٨ - ٣٣٣ .

(٢) هو طيفور بن عيسى البسطامي ، زاهد مشهور ، له أخبار كثيرة ، أفردت ترجمته بتصانيف حافلة ، توفي سنة ٢٦١ هـ .

«حلية الأولياء ١٠/٣٣» «الأعلام ٣/٢٣٥» .

الباب السادس والعشرون



في ذكر رياضة الأولاد

أقوم التقويم ما كان في الصغر ، فأما إذا تُرك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كانَ رده صعباً ، قال الشاعر :

إن الغصونَ إذا قوَّمتها اعتدلتْ ولا يلين إذا قومتَهُ الخشَبُ
قدْ ينفعُ الأدبُ الأحداثُ في مهلٍ وليسَ ينفعُ في ذي الشَّيْبَةِ الأَدَبُ

ثم المواظبة على الرياضة أصل عظيم ، خصوصاً في حق الصبيان ، فإن ذلك يُفيدهم أنَّ يصير الخير عادة ، قال الشاعر :

لا تشْـَهَ عن أدبِ الصغيـ ـرِ وإنْ شكا ألمَ التعب

واعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج ومكانه وزمانه ، ثم يصف ، فكذلك ينبغي أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله .

وأمارة فلاح الصبي وفساده تتبين من طفولته ، فالنجيب منهم يتنبه بالتعلم ، والذي ليس بنجيب لا ينفعه التعلم ، كما لا يصير الهجان ° بالرياضة نجيباً ، وينبغي أن يتلطف بالصبي ، قال رجل لسفيان الثوري : نضرب أولادنا على الصلاة . قال : بل بشّرهم .

وكان زبيد اليافي يقول للصبيان : من صلَّى منكم فله خمس جوزات .

وقال إبراهيم بن أدهم [1] : أي بُني اطلب الحديث ، فكلما سمعتَ حديثاً فلك درهم ، فطلب الحديث على هذا .

(١) هو إبراهيم بن ادهم بن منصور ، التميمي ، ابو اسحاق ، زاهد مشهور ، ابوه من أهل الغنى في «بلخ» تفقه ورحل الى بغداد ، ثم رحل الى الشام والحجاز، وأخذ عن كثير من العلماء ، كان يعيش من العمل في الحصاد وحفظ البساتين ، ويشترك في الجهاد لقتال الروم ، جاءه عبد لأبيه (يحمل إليه عشرة آلاف درهم) يخبره أن أباه مات وترك مالاً عظيماً ، فأعتق العبد ، ووهبه المال ، ولم يعبأ بمال أبيه ، كان زاهداً ومن النساك ، توفي سنة ١٦١ هـ «حلية الأولياء ٣٦٧/٧» «الاعلام ٣١/١» .

فصل

(الأبناء أمانة لدى الآباء)

وليعلم الوالد أن الولد أمانة عنده ، فليجنبه قرناء السوء من الصغر ، ولا يعوِّده ، وليلق إليه الخير ، فإن قلبه فارغ يقبل ما يُلقى إليه ، وليحبب إليه الحياء والسخاء ، وليلبسه الثياب البيض ؛ فإن طلب الملون قال له : تلك ملابس النساء والمخانيث .

وليبادر بأخبار الصالحين ، وليجنبه أشعار الغزل ، لأنها بذر الفساد ، ولا يمنع من أشعار السخاء والشجاعة وينجد ؛ فإن أساء تغافل عن إساءته ، ولا يهتك مؤدبه ما بينه وبينه من الستر ، ولا يوبخ إلاَّ سراً ، ويمنع من كثرة الأكل والنوم ، ويعوِّد الخشونة في المطعم والمفرش ٢٣/و ؛ فإنه أصح لبدنه ، ويعالج بالرياضيات الجسمانية ، كالمشي ، ويؤدب بالنهي عن استدبار الناس ، والامتخاط بينهم ، والتثاؤب ؛ فإذا علقت به خلة قبيحة بُولغ في ردعه عنها قبل أن تتمكن .

ولا بأس بضربه إذا لم ينفع اللطف ، فقد قال لقمان[1] لابنه : يا بني ضرب الوالد للولد مثل السماد للزرع .

وإذا رآه عرماً في صغره ، فليتلطف به ، فقد قال ابن عباس : عرامة الصبي زيادة في عقله .

---

(١) الحكيم الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة لقمان ، وسميت السورة باسمه .

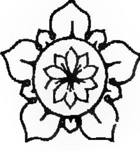
فصل

(أصول تربية الأبناء)

وكان الحكماء يقولون : ابنك ريحانتك سبع سنين ، وخادمك سبع سنين ، فإن صار ابن أربع عشرة سنة ، فإن أحسنت إليه فهو شريكك ، وإن أسأت إليه فهو عدوك .

ولا ينبغي أن يُضربَ بعدِ بلوغه ، ولا أن يُساء إليه ، لأنه حينئذٍ يتمنّىٌ فقد الوالد ليستبد برأي نفسه ، ومن بلغ عشرين سنة ولم يصلح فبعيد صلاحه ، إلا أن الرفق متعين بالكل .

الباب السابع والعشرون



في رياضة الزوجة ومداراتها

من المتعين المبالغة في النظر به هذا الباب ، فأصلح الأمور أن يتزوج الرجل البكر التي لم تعرف سواه ، فقد قالت الحكماء : البكر لك ، والثيب عليك .

إلا أنه من أعظم الغلط أن يتزوّج الشيخ الكبير طفلة ؛ فإنها تصير كالعدو ، ولكنه يحبسها عن أغراضها ، ولا تقدر أن تفي بمرادها ، وهي تنفر عن الشيخ طبعاً . فإن ابتلى الإنسان بذلك ، فليسم بغضه عندها بحسن خلقه واحتماله وكثرة الإنفاق ٢٣/ظ عليها .

فصل
(أصول معاملة الزوجة)

وقد أمعنا الشرح لهذه الجملة في كتاب «الشيب» ، وينبغي أن يتزيّن لها كما يحب أن تتزين له ، ويستر جسده عنها ، فلا ترى منه إلا المستحسن ، وكذلك ينبغي لها أن تفعل .

فصل

(الاعتدال في معاملة الزوجة)

ولا ينبغي للرجل أن يمزح مع المرأة ، فتطمع فيه طمعاً يُخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن في يدها ، فربما استغنت ، واستوثقت لنفسها ، ثم تركتْهُ . وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفهاءَ أَمْوالَكُمْ التي جَعَلَ الله لَكُمْ قياماً﴾[1] ، بل ينبغي أن يمزح بنوع من الهيبة .

فصل

(السبيل إلى اصلاح المرأة)

وأكثر العلاج في إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، واطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها ، وتلقنها تعظيم الزوج ، وتعرفها حقوقه ، وتعظم قليل الإنفاق عندها ، وتكون كالحافظ ، فإن عقل الصبي مأفون[2].

فصل

(المرأة المناسبة للشيخ)

وإن وجد الشيخ امرأة قد خرجت عن زمان الصبا ، ولم تدخل في الكهولة ، كانت أصلح ، وأطيب لعيشه ، وأقل امتناناً عليه ، وأكثر توقيراً له .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥ .

(٢) ضعيف ، ناقص . انظر «معجم مقاييس اللغة أ.ف.ن»

فصل

(زواج الشباب)

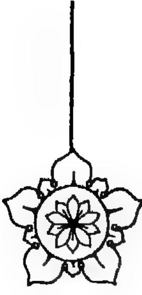
فأما الشاب ، فإنه يدل ولا يذل ، فإذا أراد التمتع بالنساء ، فالرأي له إن كان له مكنة اشترى الجواري الصغار ، فإنهن لم يعرفن الغيرة ، وهي قليلة عندهن لموضع الملكة ، وقدرته على الاستبدال والبيع ، ولتكن معهن حافظة ، ولتكن على الحافظة حافظة .

فصل

(كثرة النساء)

ومَنْ رزق ٢٤/و امرأة على مراداته ، ليهب ما فات لما حصل ؛ فإن الأصول إذا كانت محفوظة لم تذكر الفروع ، وكثرة النساء تحتاج إلى مؤنات عظام ، أقلهن حفظهن .

الباب الثامن والعشرون



في رياضة الأهل والمماليك ومداراتهم

اعلن أن الأهل إذا رأَوْك قد فقتهم بمال أو جاه حسدوك ، ومقاطعتهم محرمة ، فالمداراة لازمة ، وذلك بالبرّ لهم مع كتمان بواطن الأحوال عنهم .

ومن أعظم الغلط حرمان بعضهم ، وإعطاء البعض ، فمن اختار ذلك فليجتهد في إسرار الأمر لئلا يشتري بالمنع البغض .

وأما المالك فإنهم مالكون على الحقيقة لمالكيهم ؛ لأن المطاعم والمشارب إليهم ، فينبغي أن يتلطّف بهم لئلا يحتالوا على القتل . قال بزر جمهر[1] : نحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ، ولا حيلة لنا في الاحتراز منهم ، فنحن نداريهم .

وليجعل الملك مع اللطف بهم هيبة ، إلا أن البر لهم يكون أغلب ، وأكثره في حق من يسلم إليه الروح ، وهو صاحب المطعم والمشرب .

واعلم أن المماليك وإن كانوا أهل ذكاء وفطنة لم يستتر منك عنهم شيء ، فربما احتالوا عليك . وإن كانوا أهل غباوة لم تبلغ غرضاً في استخدامهم ، لأنك تريد الشيء فلا يفهمون مرادك .

والصواب استخدام أهل الغفلة منهم في الدواخل ، وأهل ٢٤/ظ الذكاء منهم خارج البيت فحينئذ تتم الأغراض .

---

(١) من ملوك فارس ، له حكم ومواعظ .

فصل

(الحذر من المراهقين)

ومن أعظم الغلط دخول المملوك المراهق[1] إلى البيت ، خصوصا إن كان حسن الصورة ، وفي البيت نسوة . فإن الشر لا يؤمن ، فإن سلمن من ميل إليه ، سلم هو من ميل . وكذلك من باب المخاطرات ترك الولد البالغ بين الجواري .

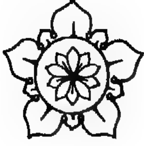
ومعلوم أن قوة الشهوة وجهل الصبا ينسيان مقدار الحرمة والتحريم .

فهذه أصول ينبغي أن يداوى بدوائها ، ولا تمهل ؛ فإنها تجر أموراً صعبة .

---

(١) الذي قارب الاحتلام .

الباب التاسع والعشرون



في معاشرة الناس ومداراتهم

لما كانت طباع الناس تختلف ، كانت مداراتهم لذلك صعبة ؛ فأصلح ما استعمل العاقل العزلة عنهم مهما يمكن ؛ فإنها راحة عظيمة ، فإذا اضطر إلى مخالطتهم خالطهم بالتلطف ، وإيفائهم الحقوق ، وإهمال حقه عليهم ، والحلم عن جاهلهم ، والعفو عن ظالمهم ، وإيثار متكبرهم بالمجلس .

ومن أعظم ما يملكهم به السماح والعطاء ، فإنه يسترق به من لم يكن ينقاد . وقد جاء في الحديث «مداراةُ الناس صَدَقَة»[1] .

فصل

(معاملة العالم للسفهاء)

وإذا ابتلي العالم بمخالطة العوام ، فينبغي أن يلبس جنة[2] الحذر ؛ فإن أغراضهم مختلفة ، يُرضى أحدهم ما يسخط الآخر ، ويغضب من الصواب لأنه يراه خطأ ٢٥/و ، ولا يقبل مع جهله أقوال العلماء .

فليبعد العالم عنهم ما استطاع ؛ فإن مخالطتهم تشينه ، تنقص من مقداره في

---

(١) ابن حبان في صحيحه ٣٤٧/١ ، برقم ٤٧١ ، والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «شعب الإيمان» عن جابر ، وانظر «كنز العمال» ٤٠٦/٣

(٢) أي سترة الحذر .

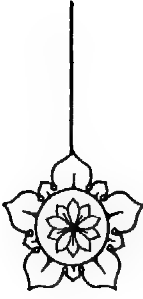
أعينهم ، فيهون علمه عندهم . ولو رآه عاص يضحك أو يأكل ، أو سمع أنه قد تزوج لم يبق له عنده قدر ، فالحذر منهم ؛ فإنهم قتلة الأنبياء .

فصل

(الاضطرار إلى مجالسهم)

فإذا اضطر إلى مجالستهم فليقلل الكلام معهم ، وليتكلم بما لا تسلق لهم به عليه ، ولا فيه احتمال لما لا يصلح لخطابهم ، وبعد هذا فالسلامة منهم طريفة .

الباب الثلاثون



في ذكر السيرة الكاملة

علامة الكامل تربية القدرة[1] له من الطفولة ، وإعطاؤه الرأي التام ، والعقل الوافر من الصغر ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[2]، وتخلق له همة عالية وشرف نفس ، فتحمله على طلب المعالي ، وتمنعه ركوب الدنايا ، فتنزله في نكبه يحب أن يكون رئيس الصبيان ، فإذا ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعلم ، والحياء لباسه من غير ترهيب .

وأقل الرياضة فيه يؤثر كما ينفع المِسَنُّ الفولاذ ، ولا ينفع الحديد ، فإذا عقل واستدل على صانعه ، وعلم لماذا خلق ، ونظر بماذا خوطب ، وإلى أين يصير ، وما المراد منه ، شمَّر عن ساق وساق ، فيطلعه العلم على حقائق الأمور ، فيرى أن أفضل الأشياء ما يقربه من خالقه ، ثم يرى أن أقرب ما يقرب به العلم والعمل ، فيجتهد في إكمالها على غاية ما يطيق منها بدنه ، وينهض النية والعزيمة بحمل الباقي .

وأنت ترى خلقاً يقتصرون على بعض فنون العلم ، فهذا مع النحو جميع عمره ، وهذا مع الحديث طول دهره ، وهو يرى أن كل العلوم مقصود ، غير أنه لما علم أن العمر لا يسع الكل ، أخذ ما يحتاج إليه من الكل زاداً لمسيره ، ونهض للعمل بمقتضاه ، فتراه ينتهب العمر خوف أن يذهب ، وما نال المراد ، ولا يضيع لحظة في غير مهم ، وينافس نفسه في زمان المطْعم والنوم لعلمه بقصر المدة ، كما

---

(١) في المخطوط : القدر

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٥١ .

قال الشاعر :

فاقْضُوا مآربكُمْ عِجالاً إنَّما أعمارُكُم سفرٌ منَ الأسفار
وتراكضُوا خَيلَ السِّباقِ وبادِرُوا أَنْ تُستَرَدَّ فإنهنَّ عواري

فهو أبداً يجتهد في عمارة وقته ، ويقهر هواه لإصلاح أمره ، ويقطع من العلم مهمه ، فقلبه مشغول عن اللهو بتصحيح قصده ، وجوارحه مقبلة بالجدِّ على طاعة ربه ، وقد اقتنع بما رزقه الله عن منن خلقه ، وعف عن أموالهم حفظاً لعرضه فسادهم بغناهُ عنهم ، وأزال فسادهم بوعظه ؛ فإن عاملهم بالانصاف لم يأخذ عليهم بفضله ، وإن استشاروه اجتهد في نصحهم على أنه مشغول على الكل بنفسه متأهب للنقلة ، همه جمع رحله يؤدي إلى كل لحظة فرضها من الحراسة بقوى لربه ، ويستظهر بكثرة الزاد لعلمه طول شوطه .

ثم يجتهد في تهذيب العلم في حياته ليحيى به أثره بعد موته ، وقد زهد في الدنيا ، ولا يتناول إلا قوت وقته ، فإن فسح لنفسه في مباح فمراده تقوية جمله على حمله ، ثم لم يزل به عرفان خالقه ، حتى دعاه إلى حبه ، فانصب الحب ، وانخرط في سلكه ، فهو بينَ الخلق بجسمه ، وعند الخالق بقلبه ، أولئك ريحان الله في أرضه ، نفوس أنفاس المريدين باستنشاق ريح أحدهم ويلفظه ، ويفوح نشر صدقهم بعد دفن راجلهم في لحده ، قد ألبست قبورهم هيبةً تُخبر عن كلّ بقدره ، وإذا ذكرت أعمالهم يقوى بها المريد في طريق صبره . والمتقون في فلك القيامة نجوم . وهم كشمسه أو كبدره ، رزقنا الله وفاقهم ٢٦/و ، ووهب لنا لحاقهم ، وألبسنا أخلاقهم بسعة فضله ، إنه سميع قريب من عبده .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

آخر الكتاب والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم..

- جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ ١ ـ ١٠ ـ تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ مكتبة الحلواني ـ مطبعة الملاح ـ مكتبة البيان ـ دمشق.
- الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ١ ـ ٢ ـ لخاتمة الحفاظ جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار خدمات القرآن ـ دمشق.
- ديوان أسماء الله الحسنى ـ محمد عبد الله القولي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ مكتبة دار التراث ـ حلب ـ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م.
- الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ للعلامة العارف بالله أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ـ تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد البلطه جي ـ دار الخير ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.
- سمير المؤمنين في المواعظ والحكم والقصص ـ لمحمد الحجار ـ دار الكتاب النفيس ـ حلب ـ الطبعة الخامسة ١٤٠٦ هـ.
- سنن ابن ماجه ١ ـ ٢ ـ للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- سنن أبي داود ـ لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ـ تحقيق عزت عبيد الدعاس ـ حمص ـ سورية.

- سنن الترمذي ـ لمحمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي ـ تحقيق عزت عبيد الدعاس ـ مكتبة دار الدعوة بحمص ـ سورية.

- سنن الدارمي - بعناية الشيخ محمد احمد دهمان - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- سنن النسائي - لأحمد بن علي بن شعيب بن علي بن أبو عبد الرحمن النسائي.
- صحيح البخاري ١ - ٦ - للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي - ضبط وترقيم وتخريج وشرح الدكتور مصطفى ديب البغا - دار اليمامة - دمشق.
- صحيح مسلم ١ - ٥ - لمسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- كلمات القرآن تفسير وبيان - للشيخ محمد مخلوف - دار الهجرة - دمشق - ودار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ١ - ٢ - تأليف العالم العلامة احمد بن محمد بن علي المقري الفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.
- مختار الصحاح - للإمام محمد بن أبي بكر الرازي - ضبط وتعليق الدكتور مصطفى ديب البغا - دار اليمامة - بيروت.
- المسند - للإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي ودار صادر - بيروت - لبنان.
- معجم لغة الفقهاء - للدكتور محمد رواس قلعه جي والدكتور حامد صادق قنيبتي - دار النفائس - بيروت.
- المعجم المدرسي - لمحمد خير أبو حرب - وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية - دمشق.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ١ - ٧ - أ. ي. فنسنك - ليدن - بريل.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

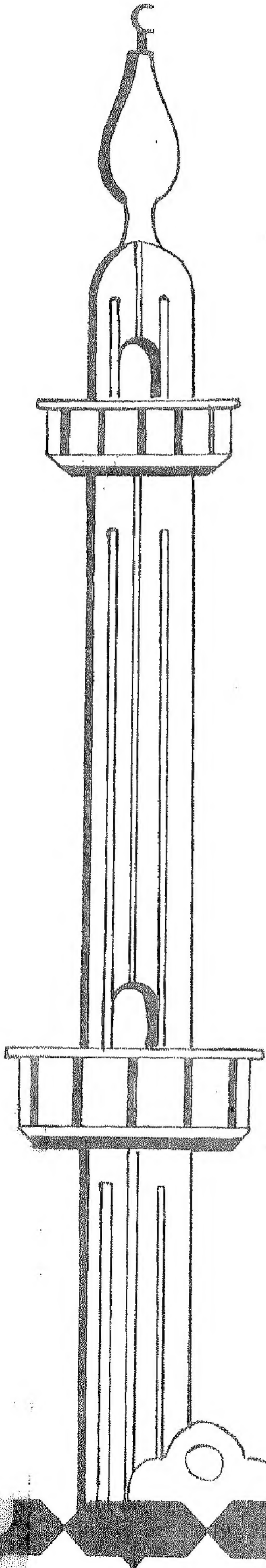
فهرس الموضوعات

الحمدُ لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عُدْوان إلاَّ علىٰ الظالمين الحمد لله القائل: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِلَنَّهم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾

صدر للمؤلف

المجموع في الضعفاء والمتروكين	النسائي ـ البخاري ـ الدارقطني تحقيق		دار القلم
المراسيل (الأحاديث المرسلة)	لأبي داود السجستاني	تحقيق	دار القلم
مشيخة ابن تيمية (الأربعون)	للإمام الذهبي	تحقيق	دار القلم
نور اليقين في السيرة	للخضري	تحقيق	دار القلم
اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء	للخضري	تحقيق	دار القلم
المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن	للمؤلف	إعداد وتقديم	دار العلم للملايين
معجم طبقات الحفاظ والمفسرين	للمؤلف	إعداد وتحقيق	عالم الكتب
مشكاة الأنوار	للغزالي	تحقيق	دار الكتب والإيمان
التبيان في آداب حملة القرآن	للنووي	تحقيق	دار النفائس
العقيدة	لأحمد بن حنبل	تحقيق	دار قتيبة
شرح الأربعين النووية	للنووي	تحقيق	دار قتيبة
العلم اللاني	للنووي	تحقيق	دار قتيبة
مسائل الإمام أحمد	لأبي داود السجستاني	تحقيق	دار قطري
الصلاة	لأحمد بن حنبل	تحقيق	دار قطري
أذكار الأذكار	للسيوطي	تحقيق	دار قطري
الكبائر	للإمام الذهبي	تحقيق	دار قطري
التبيان في شرح اللؤلؤ والمرجان	للمؤلف	شرح وبيان	دار الرشيد
المتتقد في المعتقد	للطحاوي	تحقيق	دار الرشيد
سفر السعادة	للفيروز أبادي	تحقيق	دار لبنان
اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع	لأبي الحسن الأشعري	تحقيق	دار لبنان
لمع الأدلة	للجويني	تحقيق	دار لبنان
مختصر صحيح مسلم	للمنذري	تحقيق	دار لبنان
أحاديث سيد المرسلين عن حوادث القرن العشرين ـ للمؤلف			
جواهر صحيح البخاري	للمؤلف		دار العلوم
معجم الأدوات النحوية واعرابها	للسيوطي	تحقيق	دار ابن هانيء

الكلم الطيب	لابن تيمية	تحقيق	دار الرائد العربي
الوابل الطيب	لابن قيم	تحقيق	دار الرائد العربي
شرح ابن دقيق العيد على الأربعين	للنووي وابن دقيق	تحقيق	دار الرائد العربي
الأربعون النووية	للنووي وابن دقيق	تحقيق	دار الرائد العربي
الايمان : أصوله وثمراته	للجزائري	تحقيق	دار الأنوار
الطب الروحاني	لابن الجوزي	تحقيق	دار الأنوار
السهروردي المقتول	للمؤلف	اعداد	دار الأنوار
عقيدة أرباب التقى	للسهروردي (العارف)	تحقيق	دار الأنوار
الجواهر الكلامية	للجزائري	تحقيق	دار الأنوار
السيرة الكاملية	لابن النفيس	تحقيق	
أصول وقوانين سياسية	للفارابي	تحقيق	دار الجليل
مختصر شرح العقيدة الطحاوية	ابن أبي العز	تحقيق	دار المعارف
السيرة النبوية	ابن عربي	تحقيق	دار الأنوار
عرش الرحمن	ابن تيمية	تحقيق	دار العطاء



هذا الكتاب

يتحدث عن تهذيب الأخلاق والسمّو بها، ومعالجة أمراض القلب، والسبل المؤدية إلى الكمالات الإنسانية التي ترقى بالنفس البشرية إلى أن تفتح لها أبواب النعيم وتحظى برضاء الله عز وجل.

وجاءت موضوعاتها زاخرة بالفوائد والنصائح أولاً بأول إلى مدارج التائبين العابدين الناصحين في الدنيا والآخرة ...